ثروت أباظه

ابن عمار

Looloo
www.dvd4arab.com

دار نهضة مصر للطبع والنشر
١٩ حسنين صدقي - بالفجالة

١- عـــــودة

أهكذا يعـــود !! يا لهـــا من آمال عراض تلك التى صحبهـــا يوم ترك موقفه هذا منذ سنين ... إنه لم ينس بعد تلك الأمانى العـــذبة التى كانت ترحم نفســـه يوم ضاق به العيش فى بلدته « شلب » فتزح عنهـــا وفى نفسه آمال ، وفى قلبـــه أمان ، وفى صـــدره عزم ، وفى كل دمائه شـــعر ... لقـــد ترك بلدته مهـــد ميلاده ومدرج طفولته ومغنى شبابه ليـــدور بشعره على الملوك يسترفد مالهم بما يرفده عليهم من شعره ولقد دار ، ولقد مدح ، فبالغ فى المديح ، ولقد كذب على الحق فأوغل فى الكذب ، ولقـــد أمات ضميره ليجعل الظالم منهـــم عادلا والمجنون فيهم حكيماً ، ولقد محا من ذاكرته كل ما يعرفه عن هؤلاء الملوك من شر ، ولقد أنمى بشاعريته كل ما كان يعرفه عنهـــم من خير ... ثم هـــو زاد عليـــه ، ثم هو أنشأ لهم الخير ثم هو قلب مقابحهم أفضالا

www.dvd4arab.com

ثم مدح ثم مد يده وثناها ... ألا ما أبخس ثمن الضمير فى رحاب الملوك ... إنه ليفكر أنال كفء ما أعطى ؟ أكانت تساوى هذه الدريهمات خروجه ودورانه وكذبه واختلاقه ؟ ... بل أتعدل هذه الدريهمات أن يترك بلده الحبيب ... إن يكن ضاق به فهاهى ذى الدنيا جمعاء تضيق به ... ولكن أضاقت الدنيا أو ضاقت « شلب » به هو أم أنها ضاقت ببضاعته ... وكيف تضيق ؟؟ أنه يبيع شعراً ... إنه يهب لمادحه فكراً انتظم فصار شعراً ... أهذا قليل !! ما شأن ممدوحه إن خالج هذا الفكر شعور أو لم يخالجه ... ألم ينظم شعراً ... ألم يحسن ما نظم فما هذه الدريهمات الضئيلة التى يصيبها !! فأين هذا العدل الذين يزعمون وجوده فى الدنيا ؟ ! وأى دنيا التى تجعل الشاعر العبقرى يتمسح بأبواب الجهلة من الملوك والوزراء ! ! يسكب عليهم شعره فلا يصيب منهم غير هاته الضحكة البلهاء التى تلتصق بشفاههم يحاولون بها إفهامه أنهم يفهمون ما يقول ، ويحاولون بها أن يصدقوا هم فى أنفسهم أن هذا المديح الذى يسمعون حق لا رياء فيه ولا كذب ، ثم هو لا يصيب من بعد إلا هذه الدريهمات يلقونها إليه إلقاء ! ! ولو تجسمت السعادة التى يحسونها بالمديح ولو وضعت مجسمة فى كفة لما عادلها مال العالم أجمع ولكنهم مع هذا يبخسونه حقه واهمين أن ما قاله لا يعدو الحق فى شىء فهو لم يخلق جديداً ، ولم يمت ضميراً ، ولم ينشىء

فضلا ، ولم يقلب القبح حسناً ، وهو لا يستحق إلا هذا القليل .

هكذا كان يفكر ابن عمار وهو واقف بأبواب « شلب » عائداً إليها من سفره هذا الطويل وقد تضاءلت آماله ، فبعد أن كانت تهفو إلى الغنى والشهرة والجاه العريض ، أصبحت تحوم حول حفنة من الغلال يقيم به أود نفسه وأود حماره الذى أضناه السفر فى تحقيق الآمال .

دخل ابن عمار « شلب » راكباً حماره الهزيل يفصله عن ظهره خرج قديم قذر كان هو كل ما يلبسه الحمار . أما هو ... أما أبو بكر محمد بن عمار فقد كان يضع على نفسه بضعة أخلاق من الثياب إن اختل نظام واحدة منها وضحت من تحتها عظام الشاعر بارزة تكاد تطل من جسم صاحبها ، وكان يضع على رأسه قلنسوة صغيرة يكاد شعره أن يلقى بها . دخل ابن عمار شلباً لا يقصد فيها إلى أحد فلقد ربى وشب فى قرية من أعمالها وإن كان قد تلقى علومه فى شلب على « ابن الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم » إلا أن أستاذه هذا قد مات ومات معه أغلب من كان يعرفهم ابن عمار من الأساتذة والباقى منهم لا يجرؤ ابن عمار أن يقصد إليه ليطلب فجميعهم ، فقير فلم يبق أمام ابن عمار إلا أن يكافح وحده ليرد جوع نفسه وجوع حماره الذى أضناه .

Looloo
www.dvd4arab.com

سمار ابن عمار يتلفت فى ذلة الجائع وفى عزة الشاعر فلا يجد وسيلة إلى أحد ممن يرى ، وكان الناس ينظرون إليه على حماره هذا الهزيل فتبدو على وجوه بعضهم الشفقة والإشفاق على هذا الهزال المركب وتبدو على وجوه أخرى السخرية من تلك الأثمال التى تكاد تلتئم جنباتها جميعاً من شدة هزال صاحبها والتى كانت تبدو وكأن أحداً لا يلبسها ، وإنما هى منتصبة بقدرة معجزة ، وكانت السخرية تتضح وتستبين حين تنصب عين الساخر على الحمار المضنى من كثرة المشى لا من الحمل الذى يحمل فهو لا يحمل شيئاً ...

ولكن ابن عمار كان مشغولا عن هذا كله بجوعه وجوع حماره الذى تركه يسير لم يوجهه وجهة معينة بل ترك له حق القيادة ، والحمار لا يعرف طريقاً إلى بيت ، ولا سبيلا إلى مرتع ، وإنما هو يرى طريقا فيسير ، ولقد يعوج الطريق أو يعتدل فيعوج معه ويعتدل ، حتى إذا وجد طريقين عليه أن يختار بينهما اختار دون أن يكون لعقله وازع فى هذا الاختيار فهو حمار يسير لا يدرى لماذا يسير ولا أين الطريق ... وطال الأمر على ابن عمار والحمار ، فالطريق طويل على من لا يعرف مقصداً ، ولقد مالت الشمس للغروب وكادت أن تغيب وكاد أن يغرب معها أمل ابن عمار الأخير الذى تضاءل حتى أصبح حفنة من غلال .

وفجأة أشرق سوق الغلال فى عين ابن عمار فوقف الحمار

من تلقاء نفسه على مبعدة قريبة من السوق ، وأخذ ابن عمار يفكر فى وسيلة ينال بها أمله الأخير هذا ... أيسأل تاجراً أن ينسئه حفنة غلال يرد له ثمنها عند ميسرة ، ولكن ما الذى يدعو التاجر إلى ائتمانه وهو لا يعرفه ، وهل هو نفسه يأتمن نفسه ، وأين هى تلك الميسرة التى يريد أن يرد فيها الثمن ... لا ... لا فائدة من النسيئة ... أيستجدى التاجر ؟ ... لا ودون هذا موته وموت الحمار جميعاً ... فكر ابن عمار فأطال التفكير ثم وثب إلى ذهنه خاطر ... أخذ يقلبه على أوجهه ... لماذا لا يمدح هذا التاجر بشىء من الشعر ! ... نعم إنه لم يمدح غير الملوك والسراة من القوم ولكن ما البأس فى أن يمدح هذا التاجر ، لقد كان يمدح الملوك والسراة ليصيب منهم ما لا يشترى به غلالا ... لقد كان الملوك والسراة طريقاً له إلى هذا التاجر وأمثاله ... وقد مدح هو الطريق ليصل إلى المقصد فماله لا يمدح المقصد بعد أن خذله الطريق ، ولكن أيفهم التاجر الشعر ؟ وحينئذ ضحك ابن عمار فى نفسه فأغرقت نفسه فى الضحك ... وهل فهم الملوك والسراة جميعهم الشعر ... سوف يمدح التاجر فإنه بهذا ينال ما يصبو إليه إنه بهذا سيدخل إلى نفس هذا التاجر فرحاً لم يتوقعه فى يوم من الأيام ، وعزم ابن عمار وبدأ فى التنفيذ وأخرج من جيبه قرطاساً وخط عليه فى سرعة بضعة أبيات ثم هم أن يدع ظهر الحمار ويسعى إلى التاجر ولكنه عاد إلى نفسه وخجل أن يفعل فهو لم يعوّد وقفه فى السوق وهو لم يعود أن يرى ممدوحه معه

على الأرض ، بل كان يراه دائماً على ذروة عرشه .. فكر ابن عمار فى وسيلة يبلغ بها قرطاسه إلى التاجر ، وبينما هو حائر ، مر به غلام استوقفه ابن عمار ، وطلب إليه أن يبلغ ورقته وفيها شعره إلى التاجر الذى استوجهه ابن عمار وكان الغلام طيعاً فأخذ الورقة وقصد بها إلى التاجر ، فأخذها وألقى إليها نظرة كانت كافية لأن يغمر السرور وجهه فلقد أصبح ممدوحاً يقال فيه الشعر ويرجى لديه النوال ، ولم يفهم التاجر من الشعر شيئاً غير أنه شعر وغير أن هذا الشعر لا يمدح به غير الملوك والسراة .. ولما كان التاجر واثقاً أنه ليس ملكاً فلا بد إذن أن يكون من السراة وهكذا أسرع إلى مخلاة لديه وأراد أن يملأها براً (١) ولكن غريزة التاجر فيه ردت يده فى سرعة وألقت بها إلى الشعير فملأ المخلاة منه وأعطاه إلى الغلام ثم التفت إلى غلاله يجمعها يريد أن يبلغ بيته فيفهم زوجه التى لا تنى عن إيذائه أنه أصبح ممدوحاً وأنه من السرة .

وانكفأ الغلام إلى ابن عمار يحمل إليه المخلاة بحملها الجديد ففرح ابن عمار ورأى فى هذه المخلاة آماله قد تحققت بل إن آمال حماره أيضاً قد تحققت معه ولم يبق له إلا أن يفكر فى مثل هذه الآمال لغده الذى ينتظره والذى يتربص به ليفعل به مثلما فعل الأمس ، ومثل ما يفعل اليوم ، ومثل ما تفعل كل إخوان هذا الغد من ذاهب وحاضر فى ابن عمار فويل لابن عمار من غده .. أو ويل للغد من ابن عمار .

(١) البر بضم الباء القمح .

٢- عهد الملوك

لم يمكث ابن عمار فى شلب فقد أصبحت فى عينيه مثل سائر البلدان التى مر بها فى تطوافه وإن تكن فى نفسه مهد طفولة ومدرج صبى ومعهد ذكريات .

كان لابد لابن عمار أن يأكل ، وكان لابد لحماره أن يأكل معه ، ولم يكن فى مقدور ابن عمار أن يقصر شعره على التجار ، وما كل تاجر مثل ذلك الرجل الكريم الذى وصله ، وإن تكن آمال ابن عمار تضاءلت إلا أنها فى البعيد البعيد من نفسه ما زالت وهى هى وما زالت تلقى به إلى كل متجه يرجى فيه خير .

وكانت الأندلس فى ذلك الحين مقسمة إلى دويلات على كل منها حاكم وقد أصر هؤلاء الحكام أن يسموا دويلاتهم ممالك حتى يتسنى لهم أن يسموا أنفسهم ملوكاً ولقد كثر بينهم التنازع

ولكنهم لم يتنازعوا فى هذه التسمية قط فقد اعترف كل منهم للآخر بها حتى يضمن اعتراف هذا الآخر لنفسه ولكن التاريخ أبى أن يعترف باعترافاتهم هذه ولم يقبل أن يطلق عليهم ملوكاً ، ثم يسكت عنهم ، وإنما أطلق عليهم اسم « ملوك الطوائف » . فكانت هذه التسمية من التاريخ دليلا على أن هذا التاريخ قد يصدق فى بعض الأحايين .

كان بنو عباد هم أقوى أسرة حكمت فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء ، وقد كانت إشبيلية هى مقر حكمهم ، وقد تحدر الملك فى بنى عباد حتى وصل إلى « أبى عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل ابن عباد » . وقد ولى الحكم بعد أبيه وأطلق على نفسه اسم المعتضد ، وكان أبوه القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل من خيرة الملوك الذين حكموا فى هذا الزمان . وقد سار المعتضد فى طريق أبيه قليلا فكان يستشير ويعدل ، ثم مال عن هذا الطريق فاستبد بالحكم وحده ، ولم يكن عهده كله شراً فان التاريخ ليقول عنه كثيراً من الخير ، ولكنه كان سفاكاً باطشاً ، ولعل النقائض لم تجتمع فى شخص كما تجمعت فى المعتضد ، فهو قاس غليظ القلب ، ولكنه فى مجالسه رقيق الحاشية ، حسن الذوق ، شاعر محب للشعر ، وقد كان مستمعاً للشعر خيراً منه ناظماً له .

سمع ابن عمار عن المعتضد وعن حبه للشعر ، فشد إليه الحمار عساه أن يجد لنفسه متسعاً فى الزحام ووقف ابن عمار إلى

المعتضد وقد جلس إلى جانبه ابنه المعتمد وقد كان من أحسن شعراء عصره .. وقف ابن عمار وألقى قصيدته التى أضنى ذهنه فى إعدادها فقد كان يعلم أن آمال المستقبل ألجمع رهينة بأبياته هذه قال ابن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافورة
لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره
وشيا وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد رياضه
حجلا ، وتاه بآسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله
سيفاً ابن عباد يبدد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه
والجود قد لبس الرداء الأغبرا
ملك إذا ازدحم الملوك بمورد
ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الأكباد من قطر الندى
وألذ فى الأجفان من سنة الكرى

Looloo
www.looloo.com

يختار أن يهب الخريدة كاعبا
والطرف أجرد ، والحسام مجوهرا
قداح زند المجد ، لا ينفك عن
نار الوغى إلا إلى نار القرى (١)
لا خلق أفرى من شفار حسامه
إن كنت شبهت المواكب أسطرا
أيقنت أنى من ذره بجنة
لما سقانى من نداه الكوثرا
وعلمت حقاً أن ربعى مخصبٌ
لما سألت به الغمام الممطرا
من لا توازنه الجبال إذا احتبى
من لا تسابقه الرياح إذا جرى
ماض وكف الرمح يكمم ، والظبا
تنبو ، وأيدى الخيل تعثر فى الثرى
من كل أبيض نقلد أبيضاً
عضباً ، وأسمر قد تأبط أسمرا
ملك يروقك خلقه أو خلقه
كالروض يحسن منظراً أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته
فرأته فى بردتيه مصورا

(١) ما يقدمه الضيف لضيفه .

وجهلت معنى الجود حتى زرته
فقرأته فى راحتيه مفسرا
فضاح الثرى متعطراً بثنائه
حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوجت بالزهر صلع هضابه
حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدى غصن الندى من كفه
وجنت به روض السرور منورا
حسبى على الصنع الذى أولاه أن
أسعى بجد أو أموت فأعذرا
يا أيها الملك الذى حاز المنى
وحياه منه بمثل حمدى أنورا
السيف أفصح من زياد خطبة
فى الحرب إن كانت يمينك منبرا
ما زلت تغنى من عنالك راجيا
نيلا ، وتغنى من عتا وتجبرا
حتى حللت من الرياسة محجرا
رحبا وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
إلا اليهود وإن تسمت بربرا (١)

(١) كانت هذه القصيدة على أثر وقعة انتصر فيها المعتضد على البربر .

Looloo
www.dvd4arab.com

أثمرت رمحك من رءوس كماتهم
لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء ملوكهم
لما علمت الحسن يلبس أحمرا
تمقتها وشيا بذكرك مذهبا
وفتقتها مسكاً بحمدو أذفرا
من ذا ينافحنى وذكرك صندل
أوردته من نار فكرى مجمرا
فلئن وجدت نسيم حمدى عاطراً
فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
وإليكها كالروض زارته الصبا
وحنا عليه الطل حتى نورا

وإن فى هذه القصيدة أبياتاً تظهر فى جلاء كيف تمتزج الوحشية بالجمال فالرمح على سنانه الرأس هو — فى رأى ابن عمار — غصن مثمر ، والسيف خضبه الدم هو الحسن الذى يلبس أحمر ولعل ابن عمار قصد إلى اجتماع القسوة والجمال فى نفس المعتضد أو لعله لم يقصد .. ولعله حينما أمات ضميره ومدح جاءت هذه الأبيات فى زحمة المديح ورأى نفسه يمدح شخصاً لأنه قتل فأراد أن يعتذر عما فعل ويعتذر للممدوح عما قتل فكانت هذه الأبيات .. لعله ، ولعله لم ... أيا يكون الأمر فقد ألقى ابن عمار قصيدته ثم خرج من الديوان لينتظر ما قد

يجود به عليه المعتضد ، ولقد انتظر ابن عمار فطال به الانتظار ، حتى رأى بقاءه بعد هذا عبثاً لا طائل تحته وحاول أن يصبر نفسه ولكنه أحس أن آماله فى جائزة خيال ، فقام من جلسته وفى نفسه حسرة لأعجة ، فقد كان كل مناه أن يقيم بهذا الرحاب غير نازح وها هو ذا يخرج منه حتى بغير الجائزة التى كان ينالها من الملوك الذين لا يفهمون الشعر ولا يقدرونه .. لقد علق مناه بقصيدته وكم يخذل الشعر أصحابه .. ليخرج إذن من القصر فلا يقيم .. بل ليخرج من غير جائزة وحسبه أنه خرج سالماً إن كان فى السلامة مع التشرد احتساب لمحتسب .. خرج ابن عمار إلى حماره الذى تركه خارج القصر وسار إلى حيث ترك الحمار ولكن يا للمصيبة النازلة !! لم يكن الحمار هناك . بحث ابن عمار حول القصر وأطال البحث فلم يهتد إلى حماره الأثير فجلس على سور القصر وفى نفسه ألم وحسرة وأخذ يفكر فى حماره الذاهب .. لقد صحبه منذ سنين ولقد رأى معه مر الحياة وحلوها .. وماذا أ! .. حلوها !؟ .. أين حلو الحياة هذا الذى ذاقه معه الحمار .. إنه لم يعرفه .. لا بأس لقد كان إذن حماراً صبوراً احتمل مر الحياة وهذه فلم يطالب بحلوها .. ولكن أكان يستطيع أن يطالب لقد كان صامتاً لأنه مرغم على الصمت ثم من أين يدرى أنه سرق الآن لعله هو الذى هرب وحده دون سارق . إنه هو هذا الخائن لم تكد بارقة أمل تلوح له فى هذه المدينة الضخمة حتى ترك صاحبه أحوج ما يكون إليه ليبحث عن صاحب آخر .. لم يكن وفياً ذلك الحمار .. ولعله أيضاً كان نحساً على

Loolo
www.dvd4arab.com

صاحبه فان خيراً ما لم يصب ابن عمار وهو راكبه .. أكان نحساً حقاً ابن عمار أم أنك تصبر نفسك على ما أصابها . فكر ابن عمار فأطال التفكير ، وقد انتهى إلى أن هذا الحمار كان نحساً عليه ، فمس قلبه طيف من الراحة لم تتركه نفسه دون أن تفسده عليه فحادثت صاحبها هازئة : « أكان الحمار نحساً أيها الشاعر فانظر إذن أى خير سيصيبك من بعد ذهابه .. لم تعد لك حجة فى فقرك أيها الشاعر إن كان الحمار هو حجتك » فغضب ابن عمار من نفسه هذه المتشائمة وهب يريد أن يسير وهم أن يبحث عما يركب ولكنه تذكر أن حماره قد سرق فعلم أن نفسه على حق فى سخريتها وامتطى قدميه وهم بمسير .. لم يكد ابن عمار يخطو متباعداً عن القصر حتى لحقه من ينادى به فكذب أذنيه أول أمره ولكن النداء ألح فالتفت إلى من ينادى فاذا هو خادم من القصر يسعى إليه ، فانبثق فى نفسه وامض أمل غشيته سحابة خوف ولكن صوت الخادم ما لبث أن علا طاغياً على هواجس نفسه طالباً إليه أن يعود معه إلى القصر .

ورجع ابن عمار إلى القصر الذى ترك فيه رماد أمل ضخم من آماله ولكن ما لبث هناك أى رأى هذا الرماد من الأمل قد تجسم فصار الأمل حقيقة واقعة يكاد لا يصدقها لطول عهده بالآمال المحترقة ولا يستطيع أن يكذبها لأنها قائمة أمامه وهو يقظان غير نائم ، وهو مفيق غير مخمور بغير هذه النشوة التى انسابت فى إحساسه لأول مرة فى حياته ... لقد تحقق

أمل . أمر المعتضد أن يكافأ ابن عمار فتجزل له المكافأة وأمر له بملبس فخم وبمركب فاخر ، جعل ابن عمار يلعن حماره وأيامه النكدة وكل هذه الأعطيات لا تساوى شيئاً فى نظر ابن عمار إذا قاسها بالأمر الأخير الذى قضى بأن يكتب اسمه ضمن شعراء القصر .

أصبح ابن عمار إذن من شعراء القصر ... لقد آن للشريد فى أقطار الأرض أن يراح إلى ملجأ وأن يهدأ إلى مستقر .. يتلقى ابن عمار ذلك الخير ويهم بأن يذهب إلى الحجرة التى خصصت به ، ولكن خادماً يأتى إليه ويخبره أن مولاه المعتمد يطلبه فيجف قلبه ! وكيف لا ؟ ؟ المعتمد شاعر رقيق غزل لم يقل الشعر فى يوم تكلفاً ولم يقله محتاجاً وإنما أحسه فقاله وابن عمار لم يقل الشعر إلا صناعة ... وكيف لا ؟ وهو قد تلقى هذا الخير جمعيه ولا بد لشر أن يلحق بالخير ، ولا بد للمعتمد أن ينتقد ، ونقد الأمير شتيمة قد تصل إلى ما هو أدهى .

يذهب ابن عمار إلى حيث يدله الخادم فإذا هو يجد ثلة من القوم ليس بينهم من هو أفضل من الآخر وقد افترشوا جميعاً وسائد على الأرض ، ويبحث بينهم عن المعتمد الذى رآه فى مجلس أبيه فلا يجده فيتلفت إلى الخادم يسأله عن المعتمد ولكن الخادم كان قد انصرف ، فيعيد وجهه إلى القوم فإذا هم مشرئبون إليه وإذا واحد منهم كان قد رآه حين أنشد قصيدته

tooob
www.dvd4arab.com

يقوم إليه ويقدمه إلى الجالسين ويفهمهم أنه أصبح منهم ، فيعلم ابن عمار أن هؤلاء هم شعراء القصر فلا يحتشم منهم شيئاً ، فقد كان يعلم أنه خير منهم صناعة وأنه أكبر منهم نفساً . يجلس إليهم فيقولون ويقول ، ويسمرون فيسمر ، فإذا هو أكثرهم دعابة وإذا دعاباته تنطلق على طبيعة مواتية لا أثر فيها للكلفة فقد رأى كثيراً وتعلم .. ولقد اختلط بأقوام كثيرين وعلم أن المرح هو خير عون له بعد الشعر وعرف أيضاً أن هذا المرح إن شابه تكلف أو صناعة أصبح ثقلاً لا يحتمله أحد ، وكان من حسن طالعه أن روحه كانت صافية بطبيعتها ، فهو ينطلق على سجيته ، فيجد الجالسين يميلون إليه بحديثهم ، ويؤثرونه بالتفاتهم ، وإذا هو روح المجلس المنطلقة الجميلة ..

وبينا ابن عمار منطلق فى دعاباته ، إذا بالمجلس قد غشيه الوقار فجأة ، وإذا بالمنطرحين إلى الأرض قد نفروا جميعاً وقوفاً ، فيعجب ابن عمار عجباً يقطعه صوت جديد عليه يلقى السلام إلى من بالحجرة ، ويلتفت ابن عمار فيجد المعتمد داخلاً إليهم من باب لم يكن ظاهراً فيرى ابن عمار تلك الأبواب السرية التى كان يسمع عنها وإن كان لم ير داعياً لهذا التخفى الذى اتخذه المعتمد وهو يدخل إليهم ... يدخل المعتمد وعينه على ابن عمار ثم هو يطلب من الشعراء أن يتخذوا مجالسهم ، فيتخذوها متوقرين ويلتئم الجمع حول المعتمد ، فيلتفت إلى ابن عمار ويقول له :

— هيه يا ابن عمار لو أن الشعراء فعلوا ما فعلت اليوم ما ربح أحد منهم شيئاً ... أتمشى أيها الرجل قبل أن تنال جائزتك .

فيقص ابن عمار على المعتمد كل ما لاقاه فى يومه هذا من آمال خابت وحمار سرق ثم يكمل القصة بهذا الخير الذى سكب عليه ... وكان ابن عمار يقص فى انطلاقة لم يعهدها المعتمد فيمن يحادثه وفى مرح طرب له المجلس وعلى رأسه المعتمد ... وابن عمار جذلان بما يلاقى كلامه من استحسان يشجعه على المضى فى حديثه علمه أن الأمير يشتهى دائماً أن يسمع الحديث عبيطاً لا أثر فيه لتنميق لكثرة ما يسمع من التنميق ، ويشجعه من قبل ذلك الضحك الذى يستقبل به ، وهكذا عرف ابن عمار كيف ينفذ إلى المعتمد فيصل إلى نفسه من الطريق القريب وهو طريق الطبيعة العارية التى لا تحب التعمل ولا التكلف ، وهو الطريق الذى عمى عنه كل من صاحب المعتمد من قبل ، فإن أقرب الطرق دائماً هى أبعدها عن الذهن المحدود .

سر المعتمد بالشاعر الجديد وقربه إلى مجلسه ثم حادثه عن قصيدته التى ألقاها فى أول الليل فإذا هو معجب بها فيجيب ابن عمار .

— وأين هذا يا مولاى من قصيدتك التى تقول فيها :

Looloo

واصبر فإنك من قوم أولى جلد
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترض البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مردّ لما يأتى به القدر
وإن تكن كبوة فى الدهر واحدة
فكم غزوت ومن أشياعك الظفر
كم زفرة فى شغاف القلب صاعدة
وعبرة من شئون العين تنحدر
واصبر فإنك من قوم وأى جلد
إذا أصابتهم مكروهة صبروا
لم أوت من زمنى شيئاً أسر به
فلست أعهد ما كأس وما وتر
ولا تملكنى دل ولا خفر
ولا سبى خلدى عنج ولا حور
رضاك راحة نفسى — لا فجعت به
فهو العتاد الذى للدهر أدخر
لا زلت ذا عزة قعساء شامخة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر

قال ابن عمار هذه الأبيات وهو يترنم بها ترنم المعجب

المخمور بما ينشد والمعتمد يستمع وعلى وجهه تتوالى موجات من السخط والرضى ، فليس يدرى أيها أولى بالظهور وأيها أدعى إلى الاستخفاء ، حتى إذا انتهى ابن عمار من الأبيات التى يحفظها تغلب السخط على الرضى فى نفس المعتمد وإن السخط لغالب دائماً فى نفس الملوك ... انتفض المعتمد صارخاً .

— أتذكرنى بموقعة هزمت فيها وباعتذار عن خذلان ! ! لبئس ما اخترت لى يا ابن عمار ولبئس ما شاء لك حظك .

— بل نعم ما اخترت لك ونعم ما اختار لى حظى أيها الشاعر .. أنا لا أعرفك فى موقعة وأنا لا أعرفك أميراً وإنما أنا أعرف فيك الشاعر الرقيق وأعرف فيك المعتمد بمجده الذى أنشأه هو بقلمه لا بمجده الذى أنشأه له أبوه وأجداده .

وفكر المعتمد قليلا ثم هز رأسه وقد أعجبه الكلام فكل جديد جميل وقال لابن عمار :

— بل ليس بعد يا مولاى فإن لى مأخذاً على شعرك هذا الذى ذكرت .

وبهت المعتمد فهو لم يسمع كلمة المأخذ هذه لاحقة بكلام يقوله أبداً ولكن ابن عمار لم يحفل دهشة المعتمد وأكمل ما يقول .

— لقد قلت فى بيتك الثانى : وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها ... إنك لتخاطب أباك فى قصيدتك تعتذر له عن هزيمتك

Loonad

وأنا لا أظن أن أباك بكى بل لو كان بكى لكان عليك أنت أن تكتم الأمر فلا تبن عنه أما أن تقوله شعراً فهذا ما لا أرضاه لك شاعراً أبداً .

سمع المعتمد الحديث ووعاه وأصابته وخزة النقد ولكنه وجد لها مساً رقيقاً حلواً لم يعهده من قبل فى المديح الذى يسمع، لقد أحس صدقاً فى حديث ابن عمار وهو لم يعهد الصدق فى كل من يخاطبونه ، بل كان يشعر بفراغ ضخم من الناس ، فقد كانوا جميعاً يتملقونه فهم فى عينه لا يملأون الفراغ الذى أتاحه الله لهم فى الدنيا ... بل إنهم يزيدون هذا الفراغ فراغاً ... سمع المعتمد وفرح بما يسمع ثم هب فى الجالسين :

ـ أسمعتم أيها الشعراء ... إن فى العالم صدقاً ... لقد مكثتم السنين تستمعون وتعجبون ألم أقل شيئاً ينتقد فى يوم من الأيام ؟ ومن أنا أيها الشعراء أكنت الله يرسله تنزيلا ولكن صدقاً انبثق فى القصر ... فأهلا ... أهلا بالصديق الذى طال عنه البحث .

مال المعتمد إلى ابن عمار يذاكره شعره وابن عمار يمدح فى تحفظ وينقد فى أدب ووضوح ، وحين يجد المعتمد معجباً بنفسه يشجعه على إعجابه ، فهو يلاينه ويشعره أنه يقسو

عليه ، وهو يمدحه ويجعله يحس أنه ينقده ... حتى انتهى الليل ودارت الرؤوس تهفو إلى النوم فانفض السامر وافترق الشاعران الصديقان وقد اعتزما لقاء فى يومهما التالى بل لقد اعتزما لقاء فى كل أيامهما التالية ... فهلمى أيتها الأيام وأرينا ما الذى تخفينه لصداقة جديد قوعهد جديد .

Looloo
www.dvd4arab.com

٣- عهد جديد

انصرف ابن عمار إلى غرفته معجباً بنفسه ، فقد سارت الخطة فى الطريق الذى رسمه لها ، ولقد ظفر بالمعتمد وقد عرف من أين يذهب إليه ، وقد لاقاه وأمسى أو هو أصبح وقد حقق لنفسه من الأمنيات ما ظن أنه لن يتحقق فى يوم من الأيام ، فلقد أصبح شاعر الملك المعتضد وقد أصبح قريباً إلى نفس المعتمد ولى العهد الشاعر الذى يحب الشعراء . ويفكر ابن عمار فيما كان بينه وبين المعتمد حين أفهمه أنه ينقده وأنه مخلص له ... فكر ابن عمار فى هذه الخطة التى رسمها لنفسه يوم كان فقيراً ويوم كانت آماله تصبو إلى يومه هذا ... فقد كان حينذاك يفكر فيما يلقاه هؤلاء الأمراء من تزلف وتملق ، وكان يفكر فى غباء هؤلاء المتملقين المتزلفين كيف يفوت عليهم أن الأذكياء من الأمراء يضيقون أحياناً بكثرة المديح

كما يضيقون من كثرة النقد ... وكان يفكر كيف يجب أن يضع المتقربون إلى الأمراء مدحهم فى قالب من النقد حتى يخيل للأمراء أنهم يستمعون إلى صادق ... إنه لم ينقد المعتمد اعتباطاً ، ولم تكن سرعة خاطر ولا حدة بادرة ، وإنما هى خطة نظمها فى نفسه منذ آماد بعيدة غاية فى البعد ورأى الفرصة أمامه فاهتبلها ، ولقد نجحت الخطة وقفز وثباً إلى الهدف الذى تقطعت أنفاس الكثيرين ممن يحيطون بالمعتمد ليصلوا إليه فما بلغوا مما بلغ ابن عمار شيئاً .

وأغفى ابن عمار يؤرقه شوقه إلى الغد بعد أن كان يؤرقه خوفه من هذا الغد ... وهكذا ذاق حلو الحياة ابن عمار حليف البؤس وأخو الطريق .

حتى إذا أقبل الصبح وكاد أن يغدو ظهراً دلف إلى حجرة ابن عمار خادم من القصر يوقظه وما أسرع ما تيقظ وما أجمل ما سمع ... فقد جاء الخادم يدعوه إلى المعتمد .

ووضع ابن عمار على نفسه تلك الحلة الجديدة التى أنعم عليه بها المعتضد فى ليلته الذهبية ثم نظر إلى المرآة فوجد شيئاً . ولم يكن قد نظر إلى المرآة منذ كان طفلا وما كان بحاجة لينظر إليها وما كانت حاجته إلى هذه النظرة ! ! أما وجهه فهو يعلمه ، وأما الأسمال التى كانت عليه فهو ضيق بها يريد أن تغرب عن وجهه فهو يدعو الله أن يعفيه منها أو يعفيها

Looloo
www.dvd4arab.com

منه ... أما اليوم فهو ينظر إلى المرآة ويجد شيئاً ... يجد إنساناً فى وجهه حمرة من أثر الفرح ، وفى عينيه حمرة من أثر السهر ، وفى ملبسه فخامة من عند الملك .

سعى ابن عمار إلى المعتمد ومكثا معاً وتحادثا وكانا كلما فعلا اقترب ابن عمار إلى نفس المعتمد ، فهو يقص عليه ما رأى وما سمع ، ويقص عليه ما أصابه به الدهر ، حتى إذا حس ابن عمار نفسه وكأنه يكلم شخصاً يعرفه منذ زمن بعيد تجرأ فسأل المعتمد عن دخوله فى الأمس من باب سرى وأوشك أن يأخذ هذا على المعتمد ولكنه لم يكد فإن المعتمد أسكته وطلب إلى أن ينتظر حتى يقبل المساء .

وأقبل المساء والأمير والشاعر متلازمان وسأل ابن عمار الأمير أن يجيب عن سؤاله الذى أبداه فى صدر النهار فإذا الأمير يقف ويأخذ بيد ابن عمار إلى حجرة ليس بها من شىء غريب ، فهى حجرة ذات باب وبها بعض الستائر تزين جدرانها ولكن الأمير يزيح ستاراً منها فيرى ابن عمار من خلفه ثقباً فى الحائط ويسأل الأمير عنه فيطلب إليه الأمير أن ينظر من الثقب فيفعل فيرى مجلس الشعراء الذى كان فيه بالأمس وقد التأم لا ينقصه غير نفسه وغير المعتمد ... ويستوضح الأمير فيخبره أنه يريد أن يرى الشعراء وهم جالسون فى الغرفة الأخرى دون أن يحسوا به فيتاح له أن يراهم فى مبادلهم من غير

هذه الكلفة التى يصطنعونها فى مجلسه ، فلقد ضاق بهم أمام الأمير وأراد أن يراهم أمام أنفسهم فيسأل ابن عمار :

— فإذا مسك أحدهم بما لا تحب .

إن أحداً منهم لا يجرؤ فكلهم عين على كلهم وهم يخشون على أنفسهم من أنفسهم .

— فلماذا أريتنى هذه الحجرة .

— لأننى أحسست فيك الصدق وقد رأيتك بالأمس من هذا الثقب وأنت لا تعلم ، ثم رأيتك تتكلم أمامى فما رأيت اختلافاً بين الحديث والحديث ، بل رأيتك فى كل مجالسك تطلق نفسك على سجيتها فهذا الثقب لا أحتاج إليه معك .

— والباب لماذا جعلته مختفياً .

— حتى لا يحاول واحد منهم فتحه ليعرف أن وراءه حجرة ... إنهم يظنون حين أدخل منه أنه مفض إلى دهليز من دهاليز القصر .

وهكذا تكشفت الحقيقة لابن عمار وهى فى تكشفها جعلته يحس أنه صار أقرب الناس إلى المعتمد ويفتح المعتمد الباب المختفى ويمضى إلى المجلس ومن خلفه ابن عمار .

ويرى الجالسون ابن عمار مصاحباً للأمير فتشتعل نفوسهم غيرة ولكن النار التى يقلوبهم ما تلبث أن تنقلب تملقاً لابن عمار وتوسلاً له فى المجلس وفى الحديث فقد صار القريب إلى

Looloo
www.dvd4arab.com

المعتمد .. وناهيك بقريب إلى المعتمد . ومرت الأيام فكان الشاعر يلازم الأمير لا يفارقه بل إن الأمير لم يعد يطيق أن يفارق الشاعر لحظة من حياته فهو معه طول يومه وليله لا يفارقه إلا لهجعة فى أصيل ، أو نومة فى مساء .. بل لعله كان يلازمه عند الأصيل أيضاً ويكتفى المعتمد بضجعة يتخذها ويبيح للشاعر أن يتخذ لنفسه الجلسة التى يريدها .. ومرت الأيام سريعة على المعتمد بصداقته الجديدة بعد أن كانت بطيئة ثقيلة لا يحس لها جمالا ولا رواء ، وهى إن كانت تسرع على المعتمد فهى تومض ومضاً لابن عمار لا يكاد يحسب أنها أيام مثل تلك الأيام التى مرت به وبحماره حتى لقد كان يخيل إليه أن الدهر قد تغير فأصبح يلد أياماً جديدة لا صلة لها بتلك الأيام البائسة النكدة التى قاساها .

وانقطع المعتمد عن مجلس أبيه وفرغ لابن عمار فى الصباح ثم لشعرائه جميعاً منذ صدر الليل حتى يشارف نهايته وهو يخلو بعدئذ إلى ابن عمار وهكذا حتى لم يصبح له لحظة يخلو فيها لأبيه أو لمجلسه ، وأحس الوالد بانقطاعه هذا وقد كان يعلم أن ابنه شاعر وقد كان يعلم أنه يحب الشعراء ويهفو لمجلسهم ، ولكنه مع هذا كان يراه خالياً إليه حيناً ، وإلى مجلسه أحياناً ، فأحس الوالد أن ثمة جديدة فى حياة ابنه استقصاها فعرف أنها ابن عمار ، وأنه قد زاد على الشعراء فالتهم وقت ابنه الذى كان يبقيه له هؤلاء الشعراء ، وما كان المعتضد ليسكت عن هذا فهو

يحب الشعر ويحب المجلس المرفه ولكنه يحب ملكه أولا وهو يخشى أن يصر المعتمد على شعره وشعرائه فلا يصبح الملك الذى يرجوه الغد ويرنو له العرش .

لم يسكت الملك عن هذا الأمر ، ولكنه خشى أن يلوى ابنه فى عنف ، أو يزجره فى قسوة ، فينفلت الزمام من يده ، فهو يعلم أن ابنه ذو روح شاعرة طليقة لا تطيق القيد ولا ترضاه حتى ولو كان هذا القيد ملكاً ، فهو يدعو ابنه ويبصره فى روية ويسايره فى الحديث والرأى أول الأمر ليصل به إلى رأيه الذى يريده له فى آخر الأمر ، فهو يقول عن نفسه إنه شاعر وإنه يحب الشعراء ويقربهم وأنه ليترسل مع ولده فى الحديث حتى ينتهى به إلى تلك الأبيات التى قالها فى صدر شبابه :

قسمت زمانى بين كد وراحة
فللرأى أسحار وللطيب آصال
إذا نام أقوام عن المجد ضلة
أسهد عينى أن تنام بى الحال
وإن راق أقواماً من الناس منطق
يروق .. بدامنى مقال وأفعال

وإن المعتضد ليطلب إلى ابنه أن يقسم زمانه بين شعر وإمارة ولكن المعتضد لا يقطع برأى بل يلف مع المقال ويدور فى طاعة من الحديث وعصيان عن الوعد ، والمعتضد ذكى يعلم ما يجول بخاطر ابنه ، ويعلم أنه يخشى من وعد يقطعه ثم لا يطيق أن

www.dvd4arab.com

ينفذه ، ويترامى الحديث ويطول فلكل إحراج من المعتضد مخرج عند المعتمد حتى إذا أحس المعتضد أنه مفض إلى إخفاق فيما يريد صارح ابنه أنه سيوليه إمارة شلب فيستهول الولد الخطب ويهم بأن يستقيل أباه ، فهو شاعر لا شأن له بالامارة ، فان تفض إليه فى غد له بعيد فهو سيصاب بها مرغماً لأنه لا يطيق لها دفعاً ، أما أن يصاب بها وأبوه على قيد حياة وهو بعد ما يزال غارقاً فى الشعر وابن عمار ، ودون أن يرى داعياً لتلك الاصابة فهذا ما لا يطيق ، ويقرأ المعتضد هذه المعانى على وجه ابنه وفى عينيه فيشير إلى ابنه أن يسكت قبل أن ينطق ثم يبدأ فى حديث آخر نابع من القلب :

— وبعد يا بنى أتعين الدهر على فلقد أصابنى بأخيك الأكبر أرغب ما يكون فى الخلافة وأعجل ما يكون إليها حتى لقد هم بقتلى ليعتسفها منى قبل أن يتيحها له موتى .. وقتلته ، وقتلت به شطراً من نفسى وجانباً كان فى حياتى إشراقاً حين ميلاده فاذا هو السواد الحالك .

ثم صرت أنت الأكبر والأمل فاذا أنت أزهد ما تكون فى الخلافة وأقعد ما تكون عنها فلا والله لن يصاب ملك فى ملكه وأولاده كما أصاب فبالله إلا أعنتنى على الدهر وأعيذك أن تكون عوناً له .

واغرورقت عينا المعتضد بالدمع وهمت أن تفيض به لولا أن أمسكه عزة الملك وقبول الابن .

٤ - صداقة وحب

شلب إذن هى الامارة التى اختارها المعتضد لابنه المعتمد .. بلد ابن عمار ، ومهبط رأسه ، ومكان تعلمه ، ومغنى شبابه ، ومصدر فقره ، وأيام شقائه ، لقد علم ابن عمار أن المعتمد راحل إلى شلب ليكون بها أميراً ، وهو يعلم أن المعتمد لم يعد يطيق الحياة من غيره ، فهو إذن راحل مع المعتمد وما أطيب هذا .. سوف يدخل شلباً هذه المرة وهو الصديق الأول لأميرها ومن يعلم أى غد ينتظره هناك فقد أصبح الغد ينتظره دائماً بالخير .

وسافر المعتمد إلى شلب ، وسافر فى صحبته ابن عمار ، وأقبل المعتمد على إمارته كارهاً ، وحاول أن يصرف أمورها ، ولكن أى أمور تلك التى يراد به أن يراودها إنه شاعر لماذا لا يريدون أن يفهموا هذا .. أنه شاعر يحب شعره أما الامارة فانها مشقة سوف يتحملها فى حينها .. إن أحداً لا يريد أن يفهم عنه هذا إلا صديقه

الأثير ابن عمار .. هو وحده الذى يعلم ما يعتمل بنفسه .. وهكذا يقبل المعتمد على شئون الامارة إقبالا خيراً منه الاحجام فما يكاد يقطع فى أمر حتى يهرع إلى ابن عمار ويتناشدان ثم هو يضيق بتلك الفترة الوجيزة التى يبت فيها فى أمور الحكم ، فهو يطلب إلى ابن عمار أن يجلس معه حين تعرض عليه الأمور فيفعل ابن عمار متثاقلا أو مظهراً للتثاقل . مخفيا للرغبة العنيفة فى هذه الجلسة ، متحرقاً شوقاً إليها فى بعيد نفسه .. ويجلس ابن عمار وتعرض الأمور فيسكت بعض الحين ، ولكن المعتمد لا يريد أن يراه ساكتاً فهو يلتفت إليه ليشركه فى الحديث إشراك المجاملة .. فما كان ليدرى عنه خبرة فى غير الشعر .. يلتفت المعتمد إلى ابن عمار يطلب منه رأياً عابراً فاذا ابن عمار ينبثق متفجراً وإذا هو ثاقب النظرة خبير بدقائق ما يقول .. فانها بلدته وإنه ابن عمار ذلك الرجل الذى دار على قصور الملوك فرأى وفهم ما رأى ، ثم هو حليف الطريق الطويل فما أكثر ماخلا به وبحماره هذا الطريق ، فكان يفكر ويمحص ويتعمق الأمور حتى يبلغ أعماقها وهو يقرأ فيصل إلى أغوار ما يقرأ فما هو إذن بالشاعر الهاذر الذى يمد يده ليثنيها إلى فمه فلا يفكر فى غير مد وانثناء .. وما هو بالذى يعبى عن فهم الأمور الجلائل فقد عاصرها مشاهداً ، وإن تكن الحياة النكدة لم تتح له أن يعاصرها عنصراً فيها ، فهاهو ذا المعتمد ينتقم له من تلك الحياة ويوسع لخبرته بالتفاتته تلك ، وها هو ذا يتدفق فى تبصر ويرشد فى خبرة ويهدى فى مران والمعتمد يستمع عاجباً معجباً وقد وسع ما بين

هدبيه ، فما دار له بخلد أن ابن عمار يفهم شيئاً غير الشعر وغير تلك الأحاديث الطلية التى كان يترسل فيها ولكن ها هو ذا يتضح عن رجل مارس السياسة ومارسته فليكن صديق الشعر هو هو صديق السياسة وما أجمل أن يكون هذا الصديق الدائم ابن عمار .

ولكن ابن عمار الذى سعى إلى صداقة المعتمد وإلى مجالس شعره لا يطيب له أن يشارك هذا المعتمد فى الامارة وقد كان يعلم أن إبعاد المعتمد عن شئون الامارة أمر ما أيسره ولكنه يتعجل ولا يطيق الانتظار أكثر مما انتظر .

لايطول التفكير بابن عمار فهو يعلم أن المعتمد عازف عن شئون الامارة وهو يعلم أنه يحب الشعر ومجالس الغناء ، فما أسرع ما يعقد ابن عمار هذه المجالس وما أجمل ما ينضدها فيقبل عليها المعتمد لا يفيق ويتظاهر ابن عمار أنه مقبل معه .. وتملأ هذه المجالس وقت المعتمد فهو يترك شئون الامارة شيئاً فشيئاً لابن عمار حتى يستقل بها لا يشاركه فى ذلك المعتمد ، بل إن المعتمد ليغتبط بهذا التوفيق الذى هيأه الله له فى ابن عمار فجعل منه شاعراً فذاً ومنظماً عبقرياً للجلسات الممتعة ثم شاء تبارك وتعالى أن يتوج هذا كله بخبرة نابغة فى السياسة وشئون الحكم .

وتسير الحياة طيبة للصديقين فأما الأمير فيمرح مع الشعر والحسان ، وأما الشاعر فيصرف شئون الامارة وينظر فى كل شئونها كبر هذا الشأن أو صغر ولكنه مع هذا يفكر فى أمره وأمر

المعتمد فيجد نفسه هو السيد بغير لقب وبغير وظيفة رسمية فان وظيفة شاعر الأمير لم تكن فى يوم من الأيام منفذاً إلا شئون الحكم .. لابد إذن من وظيفة وله لا وقد أصبح المعتمد خطرة منه ولم يكن من دأب ابن عمار أن يقف تفكيره عند التفكير أبداً بل إنه دائماً يتبع الفكر بعمل .

وجلس ابن عمار إلى المعتمد وامتلك ابن عمار عنان الحديث ودار به ولاب ، حتى انتهى إلى الامارة فهو يذكر للمعتمد ما يشفى به فيها ، ثم هو يتكلم مترسلا مظهراً للمعتمد أنه لا يقصد إلى غير الترسل فى الكلام فيعرض إلى المخالفات التى تقع من صغار الموظفين وكيف أنه لا يملك أن يردهم عنها ، ويفهم المعتمد مرمى الحديث وهدفه فلا يصبح الصباح إلا وابن عمار قد أصبح وزير المعتمد فى إمارة شلب .

هكذا أصبح ابن عمار فى بلدته .. بلدته تلك التى لفظته شاباً ، ثم أقفلت أبوابها دونه كلما حاول أن يلجأ إليها .. لقد صار فيها وزيراً .. وزيرها الذى يحمل وحده عبئها فلا يعرف أميرها من أمرها أمراً ، غير أن ابن عمار هو المتصرف فيها ..

هيه ابن عمار ما أحسب أيامك الخالية أتاحت لك أن تتخيل هذا الذى تمرح فيه اليوم من سعادة .. فهل تقف بك آمالك ابن عمار عند حد تنتهى إليه ، أم رأيت من الأيام لينا فأنت توغل غير ناكص .. شأنك والأيام ابن عمار .. شأنك وإياها .

* * *

ظلت هكذا حياة الأمير ووزيره الشاعر .. ولم يكن المعتمد رغم ما هيأه له ابن عمار من حسان وشعراء ليستطيع أن يتخلى عن جلسات صديقه ، فهو يتوق إليه منفرداً يتطارحان الشعر أو يجيزانه فإن ضاقا بالقصر وشلب خرجا متنكرين إلى إشبيلية يمرحان فيها ما وسعهما المرح ، وقد كانت المدينة مهيأة لهذا المرح أحسن تهيئة حتى إذا ضاقا بصخبها خرجا إلى « مرج القطة » على ضفاف الوادى الكبير فيجلس ابن عمار إلى المعتمد فى هذا المنفسح العريض من الخضرة يحف به نهر صاف يكمل الجمال الذى يشيع فى الروض .

جلس المعتمد إلى ابن عمار وقد اقتعدا السندس يرنوان إلى ذلك النهر تمسه نسمات من الهواة فتجرى مياهه فى تموج راجراج كأنه شعر غانية ترسله ، وإن الشاعرين لينعمان بتلك النسمات تنفح وجهيهما بهواء لين كأنما هو القبلات الرقيقة تغمر به الحبيبة وجه من تحب ، وإذا الشاعران يصمتان تائهين تيه المخلوق أمام روعة الخالق ، ولكن المعتمد كان أسبق من ابن عمار فى التخلص من إنسانيته ليرف إلى شاعريته ، فهو يتكلم دون أن يلتفت إلى ابن عمار ، وإنما هو ناظر إلى النهر لا يريم ، يقول المعتمد :

أجز يا ابن عمار .

ترقرق الماء بهفهاف النسيم واطرد

يا لوحة أبدعها بفنه الفرد الصمد

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكن ابن عمار يغرق فى صمته وتخشعه ويهم بأن يسأل المعتمد أن يعفيه من إكمال الأبيات ، ويهم بأن يعتذر بروعة المنظر المسكتة عن عجز فهو يعرف أن أى كلام مهما يكن شعرا هو أو شعر المعتمد لن يحيط بهذه الفتنة التى تحيط بهما . ابن عمار أن يفعل ، ولكن صوتاً رقيقاً عذباً ينساب من قريب يخاله الشاعر نسيما من النسيم ، أو خفقة من النهر ، أو صوتاً للكون الطروب حولهما قد انبعث يكمل البيتين ببيتين .. ويلتفتان إلى الصوت فيجدان حورية قد جلست منهما غير بعيد رانية إلى النهر غير ملتفتة إلى الصاحبين وإنما هى تنشد شعرها وكأنما تنشده لنفسها ، وينظران إلى جانب وجهها فيريان جمالا لم يريا من قبل وهما المعتمد وابن عمار ، ثم يسمعان شعراً لم يسمعا من امرأة قبل وهما المعتمد وابن عمار قالت الفتاة :

أجمل بها يوم الوغى لو أن ذا الماء جمد
تخالها منسوجة من خلق ومن زرد

ويقفز الشاعران من مكانيهما ويهفوان إلى تلك الحورية التى انبعثت لا يدريان من أين ، ويسرع المعتمد إليها فيضع يده على جسمها ، فقد خشى أن يكون الخيال قد خلق ما يريان ولكن الحورية تلتفت إليه وفى فمها ضحكة ، وفى وجهها بشر ، وفى عينيها وميض ، ثم هى تقول :

— بل هى حقيقة أيها الأمير .. بل هى حقيقة .

ويضطرب المعتمد من ذلك الجمال الذى شع فى عينيه فهو يقول :

— وتعرفيننى .

— ومن لا يعرف الأمير الشاعر وصاحبه الوزير ؟

— فمن أنت إذن ؟

— أنا روميكا .

— أشاعرة أنت ؟

— بل جارية .

— بل أميرة .. دونك والقصر .

وتذهب روميكا إلى القصر ويشتريها المعتمد من صاحبها ويتزوجها ويبدأ حب فى قصر المعتمد هو حبه الأول والأخير ، فقد عرف النساء من قبل جوارى ولكنه لم يعرفهن حبيبات ولا شاعرات .

ويغير المعتمد اسم روميكا فيصير « اعتماد » . وابن عمار يرى هذا فيفرح به ، فقد سقط عن كاهله تدبير المجالس والنساء ، وفرغ للامارة وحدها لا يشغله عنها إلا أن يجلس أحيانا إلى المعتمد ، فلا يسمع من المعتمد إلا عن اعتماد إن كان شعرا فشعر أو يكن حديثا فحديث ، وابن عمار فى الحالين يسبح

Loaaa
www.ibtdarab.com

المعتمد أن يسير فى حبه فما الشباب إلا حب وما الشعر إلا خفقة القلب صيغت ، والمعتمد يقبل على هذا الحديث إقباله على حب اعتماد والامارة بين حديث ابن عمار وفراش اعتماد ضائعة لا تعرف أميراً غير وزيرها ، فالوزير منفرد بالأمر .. ولم يكن الوزير ذا ضمير مرهف ، ولم يكن ذا مال ، ولا هو بذى قناعة .. وقد عرفت يده كيف تمتد بعد شعر المديح يقوله لسانه فهى اليوم تعرف كيف تمتد بعد شعر المديح تسمعه أذنه ، وإن لم يكن لهذا سعى إلى الوزارة . فلماذا ؟؟ فما هو بالوطنى الصادق الوطنية لوجه الشرف ، ولا هو بالوفى الخالص الوفاء لآل عباد ، إن ابن عمار لم يكن صادق الوفاء ولا خالص السعى إلا لابن عمار وحده . وبهذا المبدأ الواقعى سار ابن عمار فى وزارته وسارت به الأيام حتى إذا فاض المال لديه علا رنينه . وللمال الحرام رنين ضخم لو أن آذان المعتمد خلت لحظة لصكها ، ولكن من أين لها وهى تمتلىء بحديث الحب فى المساء وبالحديث عن الحب فى الصباح .. ولكن الرنين يعلو وتتواكب أصداؤه حتى تبلغ آذان المعتضد ذاته فى إشبيلية فيثور .

ويصبح المعتمد ذات صباح فيقصد إلى الايوان ويرسل فى طلب ابن عمار ولكن الحاجب يستأنيه حتى يرى رسول أبيه ، ويدخل الرسول فاذا هو يحمل ورقة يأمره أبوه فيها أن ينفى ابن عمار من شلب ويسأل الرسول تفسيراً لما يحمل فما يحير الرسول بجواب ، فهو لا يعرف ماذا يحمل ، ويعود الأمير إلى

الورقة فيجد الأمر قاطعاً أبكم لا يبين بغير الأمر وحده .. فتدمع عين المعتمد ، ويعود إلى طلب ابن عمار فيأتى الوزير ويهم بأن يفسح للحديث ما كان يفسح ولكن المعتمد مقطب الوجه مغرورق العينين مكروب النفس ، فلا يسأله ابن عمار عما به فقد تعود أن تتهدى إليه نفس المعتمد دون أن يسعى إليها .. ولا يطول الصمت بالمعتمد بل هو يقضى لابن عمار بما حمله الرسول فيخف ابن عمار عن المعتمد وإن يكن الخبر قد أكربه إلا أنه يعلم من أين يلج إلى النفوس ، ويعلم أنه لو أثار المعتمد على أبيه فإنه قد يثور لحظة ثم تمسك به بنلوة وبهبط به إيثار لسلامة . فهو إذن يحاور المعتمد ويسوق إليه أن أباه لم يرد إلا خيره وأنه إنما أمر ليتيح للمعتمد أن يقوم بأمر الامارة وحده بغير معين حتى يمرن على الحكم ويحسن الدربة . ويصل هذا الحديث إلى نفس المعتمد فيخفف مما يحس ثم هو يلتفت إلى ابن عمار ليقول له :

— أنا أعلم أنك احتملت عبء الوزارة فلم تصب منه مالا فحتى تجهز أمرك أكون قد دبرت لك ما يعينك فى غربتك ، وإنى سأظل على وصلك ما دمت بعيداً حتى يقضى الله أمراً وألقى أبى فأترضاه وتعود الأيام صافيات كما كن .

وقد استطاع ابن عمار وهو يسمع هذا الحديث أن يحدر دمعتين بدتا نابعتين من القلب وإن يكن ابن عمار نفسه قد عجب كيف بدرتا من العين .

www.dvd4arab.com

وخرج ابن عمار يستهدف أقاصى الأندلس وحاول من تركهم فى « شلب » أن يفضحوا أمره للمعتمد فراحوا يتحسسون نفس المعتمد ليروا أى اللونين تقبل أهو مديح ابن عمار أم هجؤه فرأوا المعتمد باكى النفس على فراقه دامع القلب لهذا الأمر الأصم الذى صكه من أبيه ، فإذا هم يحيدون بما كانوا ينتونه من ذم واغل إلى مديح مفرط لابن عمار يتقربون به إلى المعتمد ، فتفتح آذان المعتمد لهذا المديح ويزيد حبه له إن كان ثمة مكان لزيادة ، وهكذا يظل ابن عمار فى نفسه هو صديق المخلص وهو الوزير الأمين وهو كل شىء فى حياته ما خلا اعتماد .

٥ - إلى الطريق

إلى الطريق عاد صديقه ... ولكن أى عودة ... لقد تركه على حمار متهالك لا يجد قوته ثم عاد إليه يمتطى صهوة حصان صافن أصيل أجرد شبعان ... وقد تركه وهو أشعث أغبر لا يستر جسده إلا أخلاق بالية مركبة عليه تركيباً وهو يعود إليه أنيقاً وضيئاً ملبسه من ثمين الخز ورقيق الحرير وقد فصل عليه تفصيلا ... وقد تركه وهو شاعر خامل لا يكاد يحصل به حماره الذى يحتمله وعاد إليه الوزير الفذ والشاعر الضخم صديق الملوك ورفيق المعتمد ... ابن عمار .

عودة ميمونة تلك التى يعودها ابن عمار إلى الطريق فهو اليوم ملىء الجيب آمن عوادى الطريق والتواءات الملوك وارتفاع الأنوف ... فلقد أصبح هو نفسه ممن يسمعون شعر المديح

www.dvd4arab.com

فيلوون رؤوسهم من الكبر ، وترتفع أنوفهم من العظمة ... فليعد إذن ولكن وزيراً يعود .

ذهب ابن عمار إلى أقاصى الأندلس ومن هناك أرسل شعره إلى المعتمد ليصل مستقبله بمستقبل أمير اليوم وملك الغد وليعرف المعتمد أين استقر بشاعره المقام فيصله إن أراد وصله أو يطلبه إن عفا عنه أبوه ... أرسل إليه قصيدة من خير قصائده يقول فيها :

على وإلا ما بكاء الغمائم ... وفىّ وإلا ما نواح الحمائم
وعنى أثار الرعد صرخةطالب ... لثأر وهز البرق صفحةصارم
ومالبست زهر النجومخدادها ... لغير ولا قامت له فى مآتم

ثم هو يميل إلى المعتضد يمدحه وإن له فى مدحه لمذاهب فهو يترضاه وهو يظهر للمعتمد خضوعه مهما يفعل به المعتضد وهو يمدح الأب لابنه عالماً أن مدح الجريح لجارحه يعلى من شأن المادح فهو يتقرب من نفس الابن ويرضى فيه حبه لأبيه ويبدى مشاركته له فى هذا الحب ... يقول ابن عمار عن المعتضد :

أبى أن يراه الله إلا مقلدا ... حميلة سيف أو حمالة غارم

وتصل القصيدة إلى المعتمد فيبكى مع الغمائم الباكية ويكاد ينوح مع الحمائم لولا الرجولة والشهود ويعلم من الرسول

اين مكان ابن عمار فيصل بكل ما يستطيع أمير صديق أن يصل ويعود الرسول يخمل إلى ابن عمار المال خير دليل على حب مقيم وصداقة ما زالت أصيلة الجذور فى نفس المعتمد يعلم الله وحده مدى ما تأدت إليه فى نفس ابن عمار . ويعود ابن عمار فيكتب شعراً جديداً يبدأه بغزل رائع ويرسل بالقصيدة :

جاء الهوى فاستشعروه عاره ... ونعيمه فاستعذبوه أواره
لا تطلبوا فى الحب عزا ، إنما ... عبدانه فى حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم ... يا حبذاه وحبذا إضراره
قلبى هو اختار السقام لجسمه ... زيا فخيره وما يختاره
عيرتمونى بالنحول وإنما ... شرف المهند أن ترقّ شفاره
وشمتّمُ لفراق من آلفته ... ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه ... أو أن ذاك النوم عاد غراره
إنكان أعيا القلب من حر الجوى ... خذلته من دمعى إذن أنصاره

والقصيدة بعد ذلك مفضية إلى مدح المعتضد وما يكاد المعتمد يقرأها حتى يجن بها ويرتاح إلى هذه الخطة لتى انتهجها ابن عمار فى مدح أبيه ويمتد أمله إلى صفح أبيه عن ابن عمار إن هو قرأ هذا الشعر فهو يعلم أن أباه يطرب للشعر الجميل ويرتاح إليه ويدعو المعتمد رسولا يهم أن يبعث به إلى أبيه حاملا القصيدة ولكنه ما يكاد حتى يسمع ضجيجاً عالياً وصخباً يقترب من حجرته إلى أن يبلغها ويفتح الباب ويدخل رسوله من عند

Looloo

المعتضد يلهث يخبر المعتمد أن أباه قد اشتد به المرض وأنه يدعوه فيقوم المعتمد من مجلسه إلى حصانه فلا يتزود بشيء حتى ولا بنظرة من اعتماد ويغمز المعتمد الحصان ويصل إلى أبيه فيجده ينتزع أنفاسه الأخيرة فيمثل أمامه فيوصى الأب إبنه بما يوصى به الملك خليفته ويموت الملك المعتضد ويصير الملك إلى الملك أبى القاسم محمد بن عباد المعتمد آخر ملوك بنى عباد .

٦ - عندما قوم

عاد ابن عمار إلى الملك المعتمد وقد أمن الدهر وعواديه واطمأن إلى المقام فى إشبيلية عاصمة الملك ... وعادت الليالى وضاء كما كن وأصبح ابن عمار وزير دولة بنى عباد أجمع وقد أراد ابن عمار أن يفعل شيئا عقب توليه الوزارة فزين للمعتمد أن يفتح قرطبة ففتحها فكان هذا بداية رائعة لعهد حافل بالأحداث .

ويرى الوزير الجليل أن القصر لم يصبح بالمكان الذى يليق به فى منصبه الجديد فقد كان هذا القصر يصلح حين كان شاعر المعتضد أو صديق المعتمد أو وزير شلب ، أما وهو وزير الدولة المدال فلابد للوزير من بيت فقد أصبح الوزير ذا عائلة وأولاد أنجبهم من الجوارى اللواتى أنعم بهن عليه المعتمد فلابد إذن

من بيت ولابد لبيت الوزير أن يكون ضخماً شاهقاً متسع الجنبات ... فانه الوزير .

وقد اتخذ الوزير مسكناً وسمى باسمه وأحسن ابن عمار بحلاوة الجرس الذى لم يسمعه قط فقد أصبح الناس يقولون « بيت الوزير » أو « بيت ابن عمار » وقد كان كل مناه أن يسمع اسم الحجرة يضاف إلى اسمه .. إنه لم يسمع « حجرة ابن عمار » إلا حينما تعلق بصلة من القصر . ثم ها هو ذا أصبح لا يرضيه قولهم « حجرة » ولا قولهم « جناح ابن عمار » فأصبح له بيت بأكمله ذو حجرات وأجنحة .

إن يكن الوزير قد ابتنى بيتاً فأصبح بيت ابن عمار إلا أن ابن عمار لم يكن يلم ببيته هذا إلا إلمامة العاجل التى لا ريث بها ولا هدوء فأغلب أوقات صباحه بين الديوان ومجلس المعتمد وهو فى أغلب لياليه مع المعتمد يقضيها سمراً ولهواً أو يقضيها نوماً فى القصر .. هو لم يطلب البيت لبيت وإنما طلبه ليتصل اسمه ببيت وقد اتصل ...

وأقبل المعتمد يوماً على ابن عمار وطلب إليه أن يعد له ليلة من ليالى شلب ، تلك التى كانت قبل أن يعرف اعتماد ويدعن ابن عمار ويعد الليلة فى خبرة ودربة ومران ويقبل المعتمد على المرح فيشيع السرور فى الجلسة ويغبط المعتمد نفسه بما أنعم به الله عليه من حب وفىّ هو اعتماد ومن صداقة مخلصة حكيمة

هى ابن عمار ويشيد المعتمد بقدرة ابن عمار النابغة فى السياسة وفى الشعر وحتى تهيأة الليلة الأنيسة ويبالغ المعتمد فى تلك الاشادة ويقرب ابن عمار أكثر مما تعود أن يفعل وكلما دارت الخمر برأسه رفع من شأن ابن عمار حتى أذن الليل بزوال فاذا المعتمد وقد أصبح ثملا وإذا هو قد أبلغ ابن عمار ذروة السها وينفض المجلس ويوشك ابن عمار أن ينصرف إلى بيته ولكن المعتمد يمسك به ويقسم إيمانا مغلظة أن يبيت ابن عمار معه على وسادة واحدة وينحرج ابن عمار أول الأمر ولكنه لا يملك من أمر نفسه أمراً فهو يتبع المعتمد فرحان جذلان إلى حجرة أعدت للنوم ويستلقى المعتمد ويطلب إلى ابن عمار أن يستلقى إلى جانبه على أن يضع رأسه معه على وسادة واحدة ويهمان بحديث ولكن السهر والخمر والتعب ما لبثت أن عقدت أجفانهما .. نام ابن عمار يكاد صدره يتفجر بالسرور ازدحم به وإن تكن اليقظة قد هيأت له هذا السرور إلا أن النوم أبى أن يسكت عنه .. فان الأحلام لتتواكب أمام ابن عمار ثم تنشق عن رجل أشيب جليل ناصع الاشراق يومىء إلى ابن عمار ويتحدث فى هدوء فيقول زائر الحلم :

— هيه يا ابن عمار .. هل أمنت كيد الملوك واستراح بك المقام ووثقت من المعتمد فأنت إذن تمرح فى سرور مطمئن ونشوة صافية ... أفق أيها المخمور لذ بنفسك إن المعتمد سيقتلك .. نعم هذا الصديق الحبيب .. نعم هذا الذى انتشلك من على ظهر الخمار إلى دست الوزارة .. هو نفسه سيقتلك ..

Looloo
www.dvd4arab.com

وفزع ابن عمار من نومه وقد أرسى فى نفسه إنذار الحلم وقد شعشعت فى رأسه خمور أمس فهو يتسلل من الغرفة خائفاً ويمشى فى دهاليز القصر قاصداً إلى الباب الخارجى ، ولكنه ما يلبث أن يقف باهتاً حين يقرع صوت المعتمد أذنيه .

تقلب المعتمد فى فراشه ووضع يده حيث طلب من ابن عمار أن يلقى بنفسه ولكنه لم يجد ابن عمار فقام من فوره ونادى بالخدم وسألهم عنه فما علم أحد عنه شيئاً فطلب مصباحاً وخرج إلى دهاليز القصر يتوكأ على سيفه يبحث عن ابن عمار ومن خلفه حاشيته أجمع وطال بهم التطواف بغير جدوى فوقف المعتمد يتساءل فيدير خدمه رؤوسهم ويضربون أكفهم بأكفهم ، وبينما هم كذلك إذا بحصير يتزحزح من مكانه فانعقدت ألسنتهم واتجهت رؤوسهم إلى حيث كان الحصير قد وقف وامتنعت أكفهم عن ضرب نفسها وامتلأت نفوسهم بالذعر .. إلا أن المعتمد قد كره أن يظنوا به خوفاً وما هو بالجبان فهو يقصد إلى الحصير ويرمى السيف من يده ويطبق على الحصير فيجد بداخله أعضاء آدما ما يلبث أن يصيح « عفوك يا مولاى » ..

فيصيح به المعتمد .

— من ؟؟

فيتخلص صاحب الحصير منه وإذا هو ابن عمار عارياً لايكسوه غير فضلة من ثياب فيصيح المعتمد مرة أخرى صيحة داهشة عاجبة من ذلك الذى آثر الحصير على فراش الملك .

— ابن عمار .

— نعم مولاى ابن عمار .

فلا يملك المعتمد من نفسه إلا أن يضحك لصديقه ويفرح إن وجده فكأنما هو عائد من سفر بعيد ثم يسأل ابن عمار فى غبطة :

— ما الذى فعلت بنفسك ؟؟

— عفوك يا مولاى فقد زارنى فى النوم طيف حذرنى منك وقال إنك قاتلى فقلت أهرب وكفانى ما لا قيته عندك من الخير ومن أيام إن جعلتها زاد حياتى من السعادة كنت أسعد من واد ومن هو فى مطوى الغيب سعيد . لقد رأيت منك الرضى وأخشى أن أرى الغضب ولقد بلغت عندك الذروة وليس بعد الذروة إلا المنحدر والملوك مولاى لا يستقرون على حال فلو أنك انتقمت منى للسعادة التى أشهدتنيها لكان انتقامك فوق الشدة .

فتترقرق الدمعة فى عين المعتمد ويربت كتف ابن عمار ويهدأ روعه ويقول له فى صوت متهدج بالبكاء :

— يا أبا بكر إنك أخو شبابى ومجلى شعرى وشقيق حياتى وخدن حاضرى .. عرفتك وأنا بعد فى زهرة الشباب وصحبتك منذ عرفتك حتى بلغت الكهولة أو كدت .. أأفتقك !! أرأيت شخصاً يقتل شبابه وشعره وماضيه وحاضره .. أفق ابن عمار إنها لآثار نوم وخمار .. فوالله لو شهدت هذا الزائر الذى بث

www.dvd4arab.com

إليك اخوف لقتلته أن أقلق منك مضجعاً وخوف منـك آمنا ..

ثم يلتفت إلى حاشيته يأمرهم أن يحضروا قسطا من اللبن فيحضرون ويسقيه لابن عمار ويذهب به إلى الوسادة وينامان .

نومة لم تكن هادئة تلك التى أصابها ابن عمار فقد أصبح من نومه ولا هم له إلا أن يباعد بينه وبين المعتمد قليلا حتى يطمئن ما أثير بنفسه ويهدأ ما اضـطرب من خاطره ولكنه لم يستطع أن يسوق إلى المعتمد ما يعتمل بنفسه فى صباحه هـذا فتريث حتى نسى المعتمد ما كان من أمر الحلم والهاتف ثم تقدم متوددا وقال له :

— مولاى ... بقيت ... فانى لأطلب منـك الكثير وأنت تجيب حتى لقد غدوت أخشى الاثقال عليك .

— ألا إن من وراء قولك لمطلبا ..

— هو ذاك يا مولاى .

— فقله .

— حتى تقسم .

— بصداقتنا .

— أريد ولاية شلب .

فيالم المعتمد لهذا الطلب ويبادر ابن عمار :

— أملالةً يا أبا بكر .

— لا عشت إذن ... ولكننى يا مولاى شهدت نفسى بشلب هذه وأنا فقير وربيت بها وأنا لا أملك شيئاً حتى لقد تركتهـا

وخرجت أطوف بالملوك أمدحهم فما أصبت من ذلك شيئاً ثم عدت إليها عودة لا كانت لقد شهدت نفسى هناك جائعاً على حمـار جائع عريان على حمار متهالك حتى لقد أسمحت لى نفسى أن أمدح تاجراً لأصيب منه حفنة من شعير ... ثم تعلقت أسبابى بك .. وللنفس بدرات .. إن نفسى لتشتهى اليوم أن تشهد نفسها هناك وفى هذا البلد والياً عليها من قبـلك وإن آمالى لأعدمتك . تظل آمالا حتى تلقى بين يديك فاذا هى حقيقة ، وأن أمانى لا تزال أمانى حتى تنتهى إليك فاذا هى واقع .

وهكذا غدا ابن عمار والياً على شلب مهـد طفولته ومدرج حياته ومغنى شبابه ، وأيام فقره فاليها إذن يعود .. والياً يعود .

Looloo
www.dvd4arab.com

٧- ... وعـــــودة

إلى شلب عاد ابن عمار ••• لم يعد الشاعر الطريد ، ولا راكب الحمار المتهالك ، ولا مادح التاجر ولا مستجدى القمح ، وإنما عاد الأمير الخطير صديق الملك •• عاد وهـو صاحب الموكب الضخم يتبعه الخدم والحاشـية وتتساق من قبله الطـوالع والأعلام وتدق الطبول ويعلو الزمر •• ووقف أهل شلب الذين نظروا إليه على حماره يسخرون أو يشفقون أو يتعجبون ، وقفوا اليوم يرحبون ويكبرون ويعجبون ، ولم يدر بخلد الناظرين أن صاحب الحمار هو صاحب الموكب ، بل إن صاحب الحمار هذا لم يجر على ذاكرتهم فهم لم ينعموا النظر فى الحمار أو راكبه وإنما كانوا يعبرونه بنظرتهم أو يعبرهم هو بحماره فما أدركوا من ملامحه شيئاً • ولو أن واحداً منهم كان قد أنعم النظر ثم أنعمه حتى عرف ملامح ابن عمار أجمع فان هذا الواحد لا يجرؤ

بحال أن يذكر ابن عمار والحمار فى هذا الموكب الضخم • وأين ذلك النضو القمىء من هذا الأمير العظيم ، وأين ذلك الحمـار المهالك من هذا الموكب الضخم ، وأين ذلك النضو القمىء من هذا الأمير العظيم وأين ذلك الحمار المتهالك من هذا الموكب الضخم • وأين هذا الطيف الذى مر رهوا لا يحس به أحد من هـذا الذى أقام المدينـة وما زالت قائمـة •• لا •• لا صلة بين الشخوص ولا نسب •

إن يكن أهل شلب جهلوا الصلة بين صاحب الحمار وصاحب الموكب فان ابن عمار يدرك هذه الصلة تماماً ، وهو إن يكن اليوم فى هذا الموكب الضخم لأنبق من الطبول والزمور فهو لم ينس فى هذا الموكب الضخم الأنيق من الطبول والزمور فهو لم ينس شلب وكل أمانيه أن تعمى العيون حوله وأن يصيب حفنـة من غلال ••• لم ينس ابن عمار الحمار والتاجر والشعر والصـبى والشعير ، بل إنه أخذ نفسه أن تذكر هذا الذى كان فيـه حتى يحمد ما هو اليوم فيه ، فهو يحمل معه ذلك الكيس الذى أنقذه وأنقذ حماره من جوع بما حمله من شعير •• هو يحمل الكيس معه لم يفقده فى كل مناصبه التى تولاها ولم يفقده فى الذروة التى اقتعدها وإنما أبقى عليه ليشكر به من أنقذ •• فمـا يكاد يجلس على كرسى الامارة حتى يرسـل من يبحث عن التاجر فيجده ويعلم ابن عمار أن الخشية قد تولت هذا التاجر حين علم

Looloo
www.dvd4arab.com

أن الأمير يبحث عنه ، فيشفق عليه أن يستقدمه ويكتفى بأن يرسل إليه الكيس وقد ملأه فضة وأوصى من يحمل الكيس إلى التاجر أن يقول له ... « لو كنت ملأته براً لملأناه تبراً » .

وتشيع قصة الكيس بين أهل شلب فيكبرون ابن عمار ويرون فيه رجلا لم يتنكر حاضره لماضيه ولم تزهه الامارة أن يذكر ذلك الماضى العريق فى هذا البلد وكان أهل الأندلس فى ذلك الحين قوماً ذوى حس مرهف يقدرون اللفتة الكريمة ، ويكبرون النفس العالية ، ويعجبون بالخلق المكتمل وقد كان ابن عمار يعرف فيهم هذا وكان يعرف تماماً أخلاق أهل شلب خاصة ، فهو خبير بما يرضيهم عالم بما يجلب له السمعة الطيبة والاسم الكريم ، وهو إن كان قد نال من مالهم حين كان وزير المعتمد لديهم إلا أن الأمر قد اختلف اليوم تمام الاختلاف ، فابن عمار الوزير كان يعمل باسم المعتمد فما أيسر أن يلصق بالمعتمد التهم أما ابن عمار والى شلب فلا يحمل غير اسم نفسه فان أساء فهو إنما يسىء إلى هذا الاسم وحده ، وقد كان ابن عمار يحب الا يسىء إلى هذا الاسم ، وابن عمار الوزير كان فقيراً أو هو فى الحق جديد على الغنى يجب أن يستكثر من المال خشية من الغد وقد كان محقاً فى تفكيره هذا إذ سرعان ما حققته الأيام وأمر به المعتضد فنفى . أما ابن عمار والى شلب فغنى

(١) التبر : الذهب .

قديم فى الغنى أمن الغد وما بعده من أيام مهما يشتد بها السواد .

وابن عمار الوزير جديد فى المنصب الكبير لا يهمه أن تصل السعة السيئة إلى اسمه فهو حتى ذلك الحين لم يكن يحمل اسماً، أما ابن عمار والى شلب فذو اسم وذو ماض يهمه أن ينفى السىء منه فلا يبقى غير الحسن فهو يأمل أن يحسن السيرة فى شلب عساه أن يجعل عارفيه فى الوزارة يحسنون به الظن وهكذا سار ابن عمار فى طريقه على خير ما يسير والٍ فى ولايته فهو عادل أمين حصيف عالم بدقائق الأمور .

وقد تحدث الناس بسيرة الوالى الجديد وتسامعوا عنه خيراً وارتقت سيرته إلى المعتمد ففرح بصديقه وبما يبنيه لنفسه من مجد ولم يهمه أن الوالى الجديد كان يقوم بأمر ولايته دون أن يرجع إليه فى جلائل الأمور ، ولم يهمه أنه استقل بالأمر وحده وأصدر الأوامر باسمه ... لم يهمه هذا لأنه كان يحب ابن عمار ويثق به مطمئناً أنه مهما يستقل بالأعمال فإنه لن يستقبل بمواطفه وسيظل هو هو الصديق الوفى والأخ الحبيب .

لم يهمه شىء من هذا ولكن شوقه إلى ابن عمار ولياليه هو الذى يهمه فهو يضيق بإشبيلية من غير ابن عمار حتى ليرسل إليه الشعر يخفف من بعض شوقه ... وأرسل إليه يوماً قصيدة يقول فيها :

Looloo
www.dvd4arab.com

ألا حبي أوطاني بشلب أبا بكر (١)
وسلمن هل عهد الوصال كما أدري
وسلم على قصر الشراجيب(٢) عن فتى
له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد ، وبيض نواعم
فناهيك من غيل • وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنحها
بمخصبة الأرداف ، مجدية الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتي
فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لهوا قطعته
بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم
نضير كما انشق الكمام عن الزهر

وقد كان ابن عمار يستقبل هذه الأبيات جامد الحس هادىء الشعور فى داخله ••• وكان يستقبلها فى بشر عريض وفرح غامر فى ظاهره •

ولم يطل الأمر بالمعتمد وشوقه ولم يطق أن يظل البون

(١) كناية لابن عمار •
(٢) قصر الامارة فى شلب وهو غاية فى الروعة •

شاسعاً بينه وبين ألف روحه وشقيق فنه ابن عمار ••• فأرسل إليه يستقدمه فقدم إلى إشبيلية وعوضه المعتمد عن منصبه الذى فقده خيراً فعينه كبيراً لوزراء الأندلس فرضى نفساً ونسى ما كان من أمر الحلم القاتل واطمأن جانبه إلى المعتمد وعادت الأيام تصل ما انقطع وسمى بالصديقين إلى مزيد من الصداقة للمعتمد ومزيد من ارتقاء لابن عمار •

Looloo
www.dvd4arab.com

٨- دهاء الوزير

لم تكن الأندلس فى ذلك الحين خالصة الحكم لملوكها فلقد كانوا أضعف من أن يقوموا بالأمر وحدهم وقد انتهز الإفرنج هذا الضعف فراحوا يهددونهم فى ديارهم ويفرضون عليهم الجزية لقاء سكوتهم عنهم • ولقد أذعن الملوك لهذا التهديد فدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون فما كان الخلف بينهم ليترك لهم سانحة يفرغون فيها من عدوهم المشترك ولو كانوا قد تضامنوا لتغلبوا عليه ••• ولكن من أين لهم وقد تقطعت بينهم السبل فأصبح ما بينهم وبين بعضهم خراب بلقع لن يعمره الشر الذى يحيق بهم ولن يصله العدو الذى يتنمر لهم •

ولقد كان هذا العدو حصيفاً فهو لم يهجم لأنه يعلم أن جيوشه لا تكفى فهو يهدد فى تبجح فتلمع نفوس الملوك فهى خائرة ، وهو يطلب الجزية فتمتد بها أيدى الملوك صاغرة ذليلة •

ولم يكن حال المعتمد خيراً من حال إخوانه وإن يكن هو أقواهم وأعزهم جانباً إلا أن أمواله كانت جميعها منزوفة على مطالب اعتماد وقد كانت لا تنتهى والقليل الباقى لم يكن كافياً لإقامة جيش ولكنه كان كافياً لأن يدفع الجزية فهو يدفعها •

وكان الأذفونش كبير ملوك الفرنجة فى ذلك الحين هو الذى يتقاضى الجزية من المعتمد ومن ثم كان على صله وثيقة بابن عمار وقد كان الأذفونش معجباً به كل الإعجاب ، حتى لقد أطلق عليه اسم « رجل الجزيرة » فكان كلما ذكر اسم ابن عمار فى حديث يسمعه الأذفونش قال عنه « هو رجل الجزيرة غير منازع » وقد علم ابن عمار بما يقوله عنه ملك الفرنج فارتاحت نفسه إليه وكان يخرج إليه بالجزية فعرف عاداته وعرف ما يحب وما يكره وعرف هواياته فما غفل شيئاً مما يحيط به •

ولكن هذا الإعجاب الضخم الذى يكنه الأذفونش لابن عمار لم يمنعه يوماً أن يأخذ الجزية كاملة بل إنه زاد على ذلك •••

أحس الأذفونش أن مملكة المعتمد فى حال ضعف شديد وكان هو قد تكاثر المال لديه فانتوى فى نفسه أمراً ولم يسكت عند النية •••

وبينما كان المعتمد فى إشبيلية على حاله لا يفيق من حب اعتماد إلا ليجلس إلى ابن عمار وبينما كانت الدولة جميعها

Logo99
www.dvd4arab.com

مشغولة لاعتماد تنفذ مطالبها وتحقق رغباتها كان الأذفونش يقوم بعمل أكثر قيمة وأجل منفعة .

وفى يوم نظرت اعتماد من شرفتها فرأت فتيات يملأن الجرار فحدقت ملياً ثم همت بزوجها تريد أن تراه فى سريع حاسم من الأمر ويسارع الخدم ومن خلفهم الجوارى يسألون عن الملك . وكان المعتمد جالساً إلى حفنة من وزرائه يبحث معهم فى حاجة الدولة إلى المال ولكن هذا لم يقف بالخدم أن يقتحموا المجلس ويطلبوا إليه أن يسارع إلى اعتماد فيسارع وإذا هى تطلب إليه أن يجعل لها ما تملأ منه الجرار فقد اشتهت أن تفعل مثلما يفعل أولئك النسوة وينشىء المعتمد معجنة من المسك ومن ماء الورد تكلف الدولة ما كانت ستبذله لتقوية الجيش فلا يبقى بالخزانة إلا القليل .

كان هذا فى أندلس الإسلام حين كان الأذفونش يبذل من المال فوق ما تحتمل موارده جميعاً ليقيم شيئاً آخر غير معجنة المسك ، وليرضى غايات أخرى غير نفس امرأة .

وفى يوم بينما المعتمد جالس إلى النافذة يرنو إلى اعتماد ترفع ذيل الثوب عن أرجل ناعمات غائصات فى المسك وماء الورد وبينما المعتمد منتش بما يرى يستخفه الفرح ويضيق قلبه بين ضلوعه كأنه طائر يحوم حول من يحب .. وبينما السرور يشيع فى أجواء المعتمد إذا بوزير من وزرائه يدخل فلا يحتشم

من مقاصير الحريم شيئاً وإنما هو يقصد إلى المعتمد لا يريم وإذا هو يصيح به .

— أدركنا يا مولاى .

فينتفض المعتمد فمما كان بيده حينئذ أن يدرك أحداً وما كان يتوقع أن يتجاوز رجل مهما يكن وزيراً أعتاب اعتماد ... انتفض المعتمد من الدهشة ومن الغضب وإذا هو يقول للوزير بصوت يخنقه كل ما يثور بنفسه من اضطراب :

— ماذا أبا القاسم ... ماذا بك .

فيجيب الوزير هالعاً ملتاعاً .

— لقد هاجمنا الأذفونش بجيش أوله هنا وآخره لم يظهر حتى الآن .

— وأين هو ؟

— فى ظاهر المدينة .

— ومتى رأيته ؟

— لقد رآه من رآه فى باكر الصباح وما زال يتقاطر حتى الآن .

— ويحك وماذا نفعل .

— أمرك يا مولاى .

— علىّ بابن عمار .

Looloo
www.ahlalarab.com

وما أسرع ما يجيء ابن عمار وما أورع ما يرى من ملك مضطرب ووزير هالع فإذا هو يشرق بينهم كالأمن يشيع فى النفس وإذا هو هادىء أهدأ ما يكون المرء وكأن ما يلقى إليه بشريات لا أثر فيها للحرب فالقتل فالخراب والدمار ودولة تهوى وعرش يزول ... كأن شيئاً من هذا لم يلق إلى ابن عمار فهو يتكلم فى هدوء وهو يهدىء الروع الثائر ولكنه يقول عجباً ... يقول ابن عمار :

— مولاى ... إنى مخلص الأندلس والإسلام من كل ما تخشاه ... كل ما أرجوه منك أن تفعله هو شطرنج .

فيذهل المعتمد ويسأله وكأنه لم يسمعه .

— ماذا .

— شطرنج .

— أتقصد الشطرنج الذى يلعب به .

— نعم أقصد الشطرنج الذى يلعب به .

— أتهذى ؟؟ !!

بل أجد

— وماذا أنت فاعل به ؟؟

— هذا سرى يا مولاى ... فابقه علىّ أبقاك الله .

— وكيف تريده أن يكون ؟؟

— أريده أفخم ما يكون الشطرنج .. أريده من خالص الذهب ومن خالص الفضة وأريد أمهر الصناع أن يتركوا أعمالهم جميعها فلا يفعلوا شيئاً إلا أن يتقنوا صناعة هذا الشطرنج .

— يسير مطلبك يا ابن عمار .. يسير مطلبك .

ويأمر المعتمد فيمتثل الصناع أمره ويفرغون للشطرنج حتى يفرغوا منه .. ويخرج ابن عمار إلى خيام الأذفونش فيلتقى بقادته والمقربين إليه ويتكلم معهم حديثاً جارياً لا يقصد ظاهره إلى هدف ولا يهدف فى لفظه إلى غاية .. يتكلم ابن عمار فاذا حديث الشطرنج وصفاته واتقان صناعة حديث شائع بين خيام الأذفونش وإذا القوم لا يتكلمون فيما بينهم إلا عن الشطرنج حتى يرتقى حديثهم إلى الأذفونش وإذا الأذفونش وقد أصبح كل همه أن يرى هذا الشطرنج فهو يستدعى ابن عمار ويسأله :

— أصحيح ما يقال عن الشطرنج يا رجل الجزيرة .

— وما الذى يقال يا مولاى .

— يقولون إن الصناع قد أبدعوه إبداعاً فهو ما لم ير الأوائل ولا الأواخر .

— ليس السماع كالعيان يا مولاى .

— فمتى أراه .

— متى تحب .

Looloo
www.dvd4arab.com

— فهاته الآن .

— أحضره الآن .

ويقوم ابن عمار إلى الشطرنج فما هى إلا بعض ساعة حتى يكون الشطرنج بين يدى الأذفونش يقلبه بين يديه عاجباً معجباً مادحاً كل قطعة فيه ويرى ابن عمار إعجابه فيسكت ولكن الملك لا يطيق السكوت .

— كيف السبيل إلى مثله يا رجل الجزيرة .

— ليس إلى مثله من سبيل يا مولاى .

— وكيف ؟! إننى أبذل لنيله ما تشاء من المال .

— إن المال لا يعوق يا مولاى .. غير أن الصناع الذين قاموا بصناعته قد ماتوا جميعاً ولن يقدر على إبداع مثله صناع اليوم ..

— فليس من سبيل إلى مثله .

— إلى مثله لا سبيل ... أما إليه ... فلعل هناك سبيلا .

— وما هو .

— أراهنك عليه .

— علام .

— ألاعبك به فان غلبتنى فهو لك وإن كانت الغلبة لى فان لى عندك مطلباً .

— وما مطلبك .

— لا أقوله حتى تكون الغلبة لى .

— ولكنك تعلم أن أحداً لا يتقن لعب الشطرنج مثلما أتقن .

— وأعلم ذاك .

— ولكنك لا تبين عن مطلبك .

— حتى يتم النصر لى .

— لا أظننى أرضى بهذا فأنا لا أعرف مدى قدرتك فى اللعب وأنا لا أعرف مطلبك وأخشى أن يكون عسيراً .

— ولكنك يا مولاى تتقن اللعب إتقاناً فما خشيتك .

— إن الذى عند الملك كثير فأخشى أن يكون مطلبك كثيراً .

— أمرك إذن يا مولاى .

— أنظرنى إلى الغد .

وخرج ابن عمار من عند الملك واجتمع بقواده المقربين إليه كل على حدة وأغراهم أن يطمعوا الملك باللعب وألقم من يمد يده ذهباً وأفهم من لا يمدها أن الملك لا يجمل به أن يتراجع وهو اللاعب الحاذق .. وانتقل الاغراء إلى الملك ألقاه إليه أصحابه مظهرين له أنهم ينصحونه وأنهم يخشون أن يتسامع الناس بتقهقره .

ويطلع الصباح فاذا الملك قد انتصح ينصح قواده وإذا هو يرسل من يدعو ابن عمار فيجيء فيخبره الملك أنه قبل الرهان .

(ابن عمار)

Lolos

ويبدأ اللعب وقواد الأذفونش شهود فما يلبث ابن عمار أن يتغلب على الأذفونش غلبة واضحة لا سبيل إلى نكرانها . فيعترف الأذفونش بها ويغتصب ابتسامة يلصقها بفمه ويسأل ابن عمار .

— فما مطلبك يا رجل الجزيرة .

— لا شيء إلا أن يتفضل مولاى فيأخذ جيوشه ويعود بها من حيث أقبل .

يسمع الأذفونش هذا الحديث فتصبح ابتسامته تشنجاً مرتعشاً ويصيح بابن عمار :

— ويحك أجاد فيما تقول .

— ليس لى مطلب آخر يا مولاى .

فيعلم الأذفونش أن الوزير قد أحاط به فيلتفت إلى قواده ثائراً بهم .

— أرأيتم ما نصحتم به .. أرأيتم ما أوقعنا فيه الرجل .. ولكن لا .. لا يمكن ان يصبح الغدر جداً .

فيجيب ابن عمار :

— إن هذر الملوك جد يا مولاى .

فيعود الملك إلى وزرائه يكاد يقتلهم من شدة غيظه فيتركه ابن عمار ثائراً هائجاً ويخرج ولكنه لا يترك الخيام قبل أن

ينتظر القواد مرة أخرى فيلقمهم مالا أو يلقنهم أن كلام الملوك لا يمكن أن يتراجع فانه كلام الملوك .

ويترك القواد ملكهم ليلتهم هذه ثم يصبحون إليه فيقولون له إنه وعد ووعد الملك تنفيذ ولابد أن يقوم بما طلبه إليه ابن عمار إيفاء للرهان فما يصبح اليوم التالى حتى يكون الأذفونش قد دعا ابن عمار فيذهب إليه فيقول الأذفونش .

— لقد أوقعتنى يا ابن عمار ولن أنساها لك .

— أسيئة تحسبها لى يا مولاى أم حسنة .

— ويحك أتريدنى أن أعتدها لك حسنة .

— ومالك لا تفعل يا مولاى ألم أخدم بها ملكى وبلادى .

— ويحك قد يعتدها غيرى حسنة لك يا ابن عمار أما أنا فلا .. لا يا ابن عمار .

— بل سوف تفعل يا مولاى حين يهدأ ثائرك .

— والآن .

— والآن يا مولاى .

— لا أترك بلادكم حتى أنال الجزية مضاعفة هذا العام .

— أمرك يا مولاى .

وينصرف ابن عمار ليعود إلى الأذفونش بالجزية مضاعفة فيأخذها الملك مزمجراً ولكن ابن عمار يتقدم إليه بشيء كان قد لفه فهو لا يظهر ويسأله الأذفونش :

www.dvd4arab.com

ـ وما هذا ؟

ـ فليزل مولاى عنه لفافته ٠

ويفعل الملك فيجد الشطرنج فيقول ابن عمار :

ـ هدية خالصة متواضعة من ابن عمار ٠

فيسر الملك من هذه اللفتة ويكاد ابن عمار أن يعود إلى سابق مكانته فى نفس الأذفونش ويعود الأذفونش إلى بلاده ويعود المعتمد إلى نافذته يرنو منها إلى اعتماد وذيل ثوبها قد رفع وقدماها قد غاصتا فى المسك وماء الورد ٠٠ إلا أنه فى هذه المرة لم يكن وحده بل كان ابن عمار إلى جواره يرنو هو أيضاً إلى جواريه يغمن بأقدامهن مع الملكة فى المسك وماء الورد ٠

٩ ـ صفقة .. أهى رابحة ؟؟؟

أحس ابن عمار بعد أن خلص البلاد من خطر الغزو أنه أصبح دعامة هذه البلاد وأحس أنه داهية فى السياسة يتلاعب بالملوك ويرد بدهائه الجيوش عظيمة ما عظمت تلك الجيوش ٠٠ ثم أحس بعد فترة من الوقت أن ذكاءه لابد أن يجد شيئاً ينشغل به فما تعود أن يراح إلى هدوء ، وما كانت النساء مأرباً لحياته وهو لم يصطنع الخمر والجلسات المازحة إلا إرضاء للمعتمد ٠٠٠ ووافت ابن عمار أنباء عن مرسية المجاورة لاشبيلية والمستقلة عنها فى الحكم ، وكان مؤدى هذه الأنباء أن مرسية تفتقر إلى الجيش ٠٠٠ وإن حاكمها على غناه لا يملك خيلا ولا رجلا ٠٠٠ وكان ملك مرسية فى ذلك الحين هو « أبو عبد الرحمن بن طاهر »

Looloo

ينتمى إلى أصل عربى ويملك أموالا ضخمة لم تلهه عن ثقافة واسعة فكان حصيف الرأى قويم الفكرة ، وكان أيضاً ضعيف الجيش منكسر الشوكة .

وكان يقيم بجوار مرسية « كونت » يدعى « الكونت دى برشلونة ريمون بيرنجيه » وكان ذا قوة وأيد وكان صديقاً لابن عمار ... وهكذا تهيأ لابن عمار أن يدعى أنه ذاهب لزيارة هذا الكونت وكان لابد له أن يمر بمرسية فى طريقه إلى الكونت ... فلم يكن غريباً إذن أن يظهر ابن عمار فى مرسية ... وإن يكن رأى فيما بعض من يريدون خيانتها وإن يكن قد رشاهم فقبلوا الرشوة إلا أن هذا لم يكن إلا تحت ستار كثيف من الكتمان لم تخترقه أعين « أبى عبد الرحمن بن طاهر » .

وقصد ابن عمار إلى الكونت وأجرى الحديث فجرى إلى حيث يريد فاذا الكونت يتحدث عن مرسية وعن ضعفها وإذا ابن عمار يظهر فى الحديث إغضاء يكاد فى ظاهره أن يصل إلى الملالة ثم لا يلبث أن يميل إلى الحديث رويداً ثم هو يشارك فيه ويشجع عليه فينطلق الكونت وينطلق ابن عمار حتى إذا رأى منفذاً إلى غايته نفذ فعرض على الأمير أمراً .

— ما دمت يا مولاى ترى هذا الأمر فيما حبسك عن أن تعتسف هذه المملكة وأنها لثمرة ما تحتاج منك لغير أصبع تمدها .

— ومن أين لى المال يا ابن عمار .

— أيمنعك المال أيها الأمير .

— والله يا ابن عمار إن شئت الحق فان المال وحده لم يكن ليمنعنى ولكننى أخشى أن أثير فى الدول الاسلامية الأخرى حفيظة لا أريدها أن تثور .

— لقد أصبت فاصلا من الأمر ولكن ماذا ترك تقول لو أن دولة عربية إسلامية هاجمت مرسية فاحتلتها وتصيب أنت ربحاً وأنت فى مكانك لا تريم .

— أكاد أفهم ما تريد .

— بل إنك لتفهمه .

— فزده إيضاحاً .

— أجيئك بالمال وتمدنى بالجيش .

— أليس الجيش دماء تراق فعائلة يتبدد شملها ، فزوجا أيما ، وابناً يتيماً ، وأما ثكلى .

— ولكنه المال ... والحاكم — بعد — ينظر للمصلحة العليا فشأنه الملك وما شأنه زوجاً ولا طفلا ولا أماً .

— وهل الملك يا ابن عمار إلا هذه الزوجة وذلك الطفل وتلك الأم .

— ولكنك تريد مالا .

— وأريد رجالا .

— الرجال كثير ولكن المال ... المال .

Looloo
www.dvd4arab.com

— كم تدفع ؟

— كم تقبل ؟

— عشرة آلاف مثقال ذهبا ؟

— فان كانت خمسة ؟؟

— عشرة ؟

— قبلت ؟

— ومن يضمن لى أنك سترسل المبلغ ؟

— ومن يضمن لى أنك سترسل الجيش ؟

وحينئذ اقتحم الغرفة ابن أخى الكونت فكأنما وجد الكونت طلبته فهو يلتفت إلى ولد أخيه ويطلب إليه أن ينتظر ريثما ينتهى حديث ويخرج الفتى ثم يلتفت إلى ابن عمار قائلا :

— ابن أخى

— مرحباً به

— ألا تسأل من يضمن لك إرسال الجيش ؟؟

— أجل

— وأنا أقول ابن أخى ؟

— ماله ؟؟

— يضمن لك

— وكيف ؟

— تأخذه رهينة

— وماذا تريد منى رهينة ؟

— أريد ابن المعتمد

وأخذ ابن عمار بهذا المطلب ولكن تردده لم يطل فقد كانت القيمة المتفق عليها حاضره عند المعتمد ، ثم ماله لا يتصرف فى أولاد المعتمد وقد تصرف فى المعتمد نفسه وما البأس الذى يخشاه ... لا بأس عليه إذن ولكنه عاد يسأل :

— وكيف يجىء إليك ؟ إن أباه لن يرضى كما تعلم ؟ وأنا لن أخبره أن ابنه سيصبح رهينة لديك ؟

— ألن ترسل المال فى موعده ؟

— بلى

— إذن فأخبر المعتمد أن ابنه سيتولى قيادة الجيش حتى يمرن على الحرب والقتال ؟

— لقد قبلت ؟

— وقد قبلت ؟

وخرج ابن عمار من عند الكونت وهو يعتقد أنه غلبه على أمره والكونت يعتقد أنه غلب ابن عمار على أمره وشاع فى نفسيهما الفرح بصفقه يعتقد كلاهما أنها الرابحة ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

١٠ - مع الملك

عاد ابن عمار إلى الملك يقص عليه ما قام به فى رحلته تلك من أعمال والمعتمد يستمع وكله إعجاب برزيره العظيم وكيف لا وابن عمار لا يقص غير ما يرضى المعتمد فهو لا يروى له عن الرهينة التى ستكون ولده ، وهو لا يقص له غير أن عشرة الآلاف مثقالا ذهباً سوف يقدمها لريمون لينال بها ملكاً جديداً ، وفتحاً مبيناً ، ونصراً مؤزراً ومجداً سامقاً .

سر المعتمد بهذا الاتفاق وعاهد ابن عمار أن يجهز الجيش وعاهده كذلك أن يؤدى المال إلى ريمون فى الموعد المضروب ولقد دهش المعتمد بعض الوقت حين وجد ابن عمار يحذره أن يتأخر فى أداء هذا المال ... دهش أن وجده يحذره من تأخير

يوم واحد فما كان ليدرى سبباً لذلك ومن أين له أن يدرى ... !!

وحين حاول الشك أن يسرى إلى نفس المعتمد مال إلى ابن عمار يسأله عما يضمن له أن « ريمون » سيوفى بوعده فأطلق ابن عمار بسمة ساخرة وقال للمعتمد :

— مولاى أتعتقد أن ابن عمار يفوته مثل هذا الأمر .

— حسبتك فعلت .

— بل لا يا مولاى ولهذا ...

— ولهذا ؟

— أحضرت معى ابن شقيق ريمون رهينة عندى .

— بوركت ابن عمار ... بوركت .

وسد سبيل الشك فى نفس المعتمد وأصبح واثقاً أن الأمر سيدين له ...

تلفت الملك حواليه يبحث عن قائد للجيش وما كان بحاجة لهذا التفت فهو يعلم أين هو ولكنه أغضى ... نعم هو يعلم أن ابن عمار خير من يقود الجيش ولكن كيف له أن يصبر عن بعده مدة أطول من تلك التى قضاها فى السفر !! ولكن ابن عمار يحتال وما أيسر ما يحتال ابن عمار على المعتمد ويتولى قيادة الجيش .

تهيأ ابن عمار للخروج من إشبيلية وأوصى المعتمد أن يرسل المال بمجرد وصول رسول منه يخبره أن ريمون أوفى بوعده

وأن الجيوش من قبل ريمون قد اتحدت مع جيش المعتمد ...
ولم ينس ابن عمار أن يحتال مرة أخرى فينال إذناً من المعتمد بأن يصحب « الراشد » ولده ليمرن على الحرب وقيادة الجيوش وما كان المعتمد ليمنع ابنه عن ابن عمار فما تعود أن يمنع عن ابن عمار شيئاً حتى وإن كان ابنه ...

واتفق المعتمد مع ابن عمار أن يلاقيه فى مرسية وضرب لذلك موعداً وقال المعتمد لابن عمار إنه سيصحب ابن شقيق ريمون معه إلى مرسية ليسلمه من ثم إلى عمه .

خرج الجيش إذن وقائده الراشد بن المعتمد شكلا وأميره فى الواقع هو ابن عمار وكان ابن عمار فرحاً أن وصل إلى ما قدر لنفسه أن يصل فابن المعتمد معه ووعد المعتمد بأداء المبلغ وعد مؤكد موثق .

وما هى إلا أيام حتى اتحد جيش ريمون وجيش المعتمد ... وأرسل ابن عمار رسوله بذلك إلى المعتمد ووعد ريمون أن المبلغ سيصل فور عودة الرسول من إشبيلية ...

وفى انتظار الرسول زحف الجيشان على ولاية « مرسية » ولكن أيام الزحف طالت ... أو أن ريمون فى الواقع شاء لها أن تطول فان المال لم يكن قد وصله بعد وهو لا يريد أن يفقد المال والرجال فى وقت معا .

وكان المعتمد فى طريقه إلى مرسية ليلاقى ابن عمار كما اتفقا وجاءه الرسول من ابن عمار ينبئه أن الجيشين قد اتحدا وانه لم يبق غير أن يؤدى المعتمد المال ... ولكن إخراج المال عسير فى كل وقت وما كان المعتمد ليعرف خطر تأخره رغم تحذير ابن عمار ... فان ابن عمار لم يبن لتحذيره عن غاية ... تراخى المعتمد فى أداء المال ... ولعله أزمع فى نفسه أن يؤدى هو المال بيده حين يصل إلى مرسية .

وما كانت هذه الفكرة لتصل إلى ذهن « ريمون » الذى رأى أن تأخر المال دليل على شر يبيت له ورجح لديه أن ابن عمار خدعه ، وكبر عليه أن يخدع فما أسرع ما أمر جيشه أن ينسلخ عن جيش المعتمد ... وحين حاول ابن عمار أن يستمهله أمر بالقبض عليه وعلى الراشد ابن المعتمد معاً ... وحاول الجيش ... جيش المعتمد أن يذود عن أميريه ولكنه ما لبث أن هزم .

ثم هذا جميعه والمعتمد فى طريقه — ما زال — إلى مرسية يبنى فى نفسه الآمال الكبار عن مدينة جديدة يضمها إلى ملكه سيجدها مفتحة الجوانب له ولحاشيته ثم ما يلبث ذهنه أن يأخذ به إلى ابن عمار فيشكره فى نفسه أن مهد له هذا الفتح المبين وما أكثر ما يشكر المعتمد ابن عمار فى نفسه .

وأراد المعتمد أن يطيل الأمد لهذه الفرحة التى تغمر نفسه وهو فى طريقه إلى مدينته الجديدة فهو يبطىء فى السير ...

Loolos
www.dvd4arab.com

فمـا يرى خميلة إلا وقف لديهـا وما يرى وادياً بات فيـه ليلة أو أكثر وما زال كـذلك حتى بلغ ضـفاف « الوادى اليـانع » وكان وصـوله فى موعد فيضان النهـر فأقام لديه حتى ينحسر الفيضان فيعبر النهر .

ولكنه لم يكد يضرب الخيام حتى شق المـاء إليـه بقية جيشه الهزيم يصحبهما فارسان من فرسان ريمون ألقيا إليه النبأ جميعه فانشطر فؤاده حزناً على ولده الواقع فى أسر وحاول أن يخفف من بعض حزنه فوضع ابن أخى ريمون فى الحديد ولـكن هيهات ما كانت نفسه لتهدأ بمثل هـذا .

حينذاك فقط عرف المعتمد لمـاذا أوصـه ابن عمار أن يؤدى المـال فى الموعد وعرف لمـاذا اصطحب ابن عمار ولده ... عرف كل شىء ولـكن لات حين ... فما يغنيه اليوم أسفه وما يغنيه اليوم غضبه على ابن عمار .

يعود المعتمد إلى إشبيلية وتصيبه وجمة تظل رانية عليه عشرة أيام لا يدرى من أمر نفسـه أمراً ... ولـكن ابن عمار الذى ألف الصعاب وعركهـا كان سريع البـديهة حاضر الذهن فمـا أسرع ما يلجأ إلى أحـد أمراء الأندلس من أصدقائه ويرسـل إليـه أنه لائذ به فينتشفع هـذا الأمير لدى ريمون فيفك إسـار ابن عمار ويبقى على الراشد ابن المعتمد حتى يضمن وصول المال.

ويقصـد ابن عمـار إلى المعتمـد يـكاد ياوى به الخـوف

ولـكنه لا يضعف إليـه بل يقصد إلى إشبيلية وحين يصـل إلى أبواب القصر يعاود قلبـه طائف خوف أن يكون المعتمد شـديد الغضب عليه فيترك القصر إلى بيته ومن هناك يرسل إلى المعتمد قصيدته الضخمة :

أأسلك قصـداً أم أعـوج عن الركب
فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى
فأجعله حظى أم الحظ فى القـرب
إذا أنقدت فى أمرى مشيت مع الهوى
وإن أتعقبـه نـكصت على عقبى (١)
على أننـى أدرى بأنـك مـؤثر
ـ على كل حال ـ مما يزحزح من كربى
أهابك للحـق الـذى لك فى دمـى
وأرجـوك للحب الذى لك فى قلبى
أيظلم فى وجهى لذا قمـر الدجى
وتنبو بكفى صفحة الصـارم العضب
حنانيـك فيمن أنت شـاهد نصـحه
وليس له غير انتصاحك من حسب

(١) يقصد أنه إذا اتبع القلب قصد إلى المعتمد ولكنه إن فكر قليلا تخلف ونكص على عقبيه .

www.dvd4arab.com

وما جئت شيئاً فيه بغى لطالب
يضاف به رأى إلى العجز والعجب
سوى أننى أسلمتنى لمة
فللت بها حدى وكسرت من غربى
وما أغرب الأيام فيما قضت به
تزينى بعدى عنك آنس من قربى
أما إنه لولا عوارفك التى
جرت جريان الماء فى الغصن الرطب
لما سمعت نفسى ما أسوم من الأذى
ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحمى لديك ضراعة
وأسأل سقيا من تجاوزك العذب
فإن نفحتنى من سمائك حرجف
سأهتف يا برد النسيم على قلبى

وهكذا أنشأ ابن عمار قصيدته تتسابق فيها السياسة مع الشعر فلا تدرى لأيهما السبق فهو يمهد بالاعتذار والتودد والتخوف وهو يذكر بالحب والصداقة وهو يوحى إلى المعتمد أنه صافح مؤثر ما يزحزح كرب ابن عمار .. ثم هو فى لباقة معجزة يحمل المعتمد العبء فيما وقع بل هو يزيد فيعتب عتباً رقيقاً فيذكره أنه أسلمه للمة فلت سيفه وحطمت سلاحه ولا ينسى ابن عمار أن يقول إنه لم يأت وزراً وأنه ما فعل

إلا ما يظنه الخير وأنه ما جاء شيئاً فيه بغى ولا ظلم وبعد هذا الدوران السياسى البارع يعود فيستمنح الرحمى ويسأل السقيا من الصفح الجميل والمعتمد — قبل — شاعر يصل القصيد إلى قلبه أسرع ما يصل ويفهم الخافى منه على أوضح فهم فهو يحس ما فى قصيدة ابن عمار من خشية واعتذار وتذكير بصداقة ويحس أيضاً ما فيها من توجيه اللوم المهذب مشفوعاً بالعتاب ثم يمس قلبه بعد هذا طلب الصفح وتدمع عينه حين يعجب ابن عمار من الأيام فيما قضت به فأرته البعد عن المعتمد آنس من القرب إليه فلا يملك نفسه أن يتناول قرطاساً ويكتب به إلى ابن عمار :

لدى لك العتبى تراح من العتب
وسعيك عندى لا يضاف إلى ذنبى
واعزز علينا أن تصيبك وحشة
وأنسك ما ندريه فيك من الحب
فدع عنك سوء الظن بى وتعده
إلى غيره فهو الممكن فى القلب
قريضك قد أبدى توحش جانب
فراجعت تأنيساً وعلمك بى حسبى
تكلفته أبغى به لك سلوة
وكيف يعانى الشعر مشترك اللب

وهكذا جاء الصفح أروع وأجمل ما يكون الصفح بل إنه

www.dvd4arab.com

ليزيد فيعترف بالخطأ منه حتى إذا فرغ ما يجيش بنفسه نحو اعتذار ابن عمار عاد إلى حزنه المقيم ذاكراً لابن عمار أنه لم يكتب هذا الشعر على سجية مواتية وإنما هو يتكلفه تكلفاً يبتغى به سلوة لوزيره وصديقه فما كان لمشترك اللب الحيران القلق على ولده أن يكتب الشعر أو يعانيه .

يهدأ روع ابن عمار ويقصد إلى المعتمد فيلاقيه وقد بدت عليه علائم فرح يغشيه الحزن ولكن ابن عمار يسرع فيدبر الأمر والمال الذى يطلبه ريمون ويرسله إليه ليفك ابن المعتمد من أسره ولكن ريمون يطمع فلا يقبل أن يفك الأسير بالآلاف العشرة التى انتهى إليها الاتفاق وإنما هو يزيدها إلى ثلاثة أضعاف فيطلب ثلاثين ألفاً من خالص الذهب .

وحين يبلغ هذا الطلب مسمع المعتمد ينشق قلبه من الغيظ والإشفاق على ابنه فإن هذا القدر من المال لم يكن موجوداً لديه وإنما الموجود لديه هو ابن عمار رجل الملمات .

ولا يطول التفكير بابن عمار بل هو يأمر فتضرب مسكوكات جديدة مزيفة ليس فيها من الذهب إلا القليل النادر الذى يكفى ليجعل ريمون يظنها ذهباً وما هى من الذهب إلا فى اسمها .

وتجوز الحيلة على ريمون فيطلق الراشد من أسره ويعود إلى أبيه فرحاً إنه كان ذا أهمية غير شاعر بما كان فى نفس أبيه

من ألم وحسرة وخوف ... ويعود ابن عمار إلى معتمده صديقين أخلص ما تكون الصداقة فرحين بحيلتهما التى خالت على ريمون يوهم كل منهما الآخر أن النصر كان فى جانبهما فهكذا النفس إن رامت أمراً كبيراً ولم تنل منه إلا القليل أو ما هو أقل من القليل حاولت أن تقتنع أن ما نالته كان النصر مؤزراً ، وما أكثر ما تخادع نفسها النفس .

Looloo
www.dvd4arab.com

١١- قمة المجد

لم يكن ابن عمار ليغبى عن فهم الأمر فهو على يقين أنه قد هزم ولكن لا بد له أن يظهر للمعتمد أنه انتصر حتى يهدأ طائره وتطمئن نفسه ... أما ابن عمار فإنه يعلم الحق من الأمر ولكنه لم ييأس إلى الهزيمة بل إنه ليصر فى بعيد نفسه أن ينال مرسية وقد خشى ابن عمار أن يظهر إصراره هذا للمعتمد فيغضب فأخذ يعمل وحده مستخفياً مرسلا الرسل إلى مرسيه متنطساً أخبارها وقد خشى ابن عمار أن يعرف المعتمد بما يفعله فلم يجد وسيلة خيراً من الإغراق فى الخمر والتظاهر بهذا الإغراق ما وسعه التظاهر حتى تناقل الناس عنه ذلك وحتى بلغته قالة الناس فإذا هو ينظم أبياتاً ثلاثة يكتبها فلا يظهرها

لغير المعتمد حتى يثق المعتمد أن ابن عمار قد عاد إلى ما كان عليه من خمر وشعر بعيداً عن السياسة وطموحها :

نقمتم على الراح أدمن شربها
وقلتم فتى راح وليس فتى مجد
ومن ذا الذى قاد الجياد إلى الوغى
سواى ، ومن أعطى كثيراً ولم يكد
فديتكمو لم تفهموا السر إنما
قليتكموا جهدى فأبعدتكم جهدى (١)

يظهر ابن عمار المعتمد على هذه الأبيات مبدياً فيها كرهه للناس ولا يخشى أن يغضب عليه المعتمد لأنه بإظهارها له يستثنيه من هؤلاء الذين قلاهم فأبعدهم . فقد كان ابن عمار يعلم أن هذه الأبيات لا بد واقعة فى يد المعتمد وخشى أن يظن نفسه ضمن هؤلاء الناس ... فابن عمار يسارع بقراءتها عليه لهذا جميعه وليفتح للمعتمد باباً يقول فيه الشعر بعد أن ثاب إليه ولده فعاد إليه لبه غير مشترك فعساه إذن أن ينشغل بمعالجة الشعر عن متابعة ابن عمار .

ويفرح المعتمد بعودة ابن عمار إلى الشعر والخمر ويفرح أيضاً ببغضه للناس فإنه بهذا سيفرغ له فيرتاح نفساً ، ويهدأ

---

(١) قليتكم أى كرهتكم شديد الكره فهو يباعد ما بينه وبينهم .

www.dvd4arab.com

خاطراً ، فقد كان بخشى طموح ابن عمار فهو يعلم أن آماله لن تقف به إلى حد ينتهى إليه ... وهو يعلم أن آمال ابن عمار هذه محفوفة بالأخطار فهى تمتد إلى الفتوح الجديدة وإلى الممالك بأكملها وكان لا بد لفتح الممالك من الجيوش والأموال والرجال ... وكان لا بد أيضاً أن يتعرض ابن عمار فى هذه الفتوح إلى الأخطار المحدقة وهو لا يكتفى بأن يقدم نفسه بل هو يزيد فيحيط أبناء المعتمد أنفسهم بما يخشاه المعتمد عليهم ...

كان المعتمد يعلم هذا جميعه وكان يعلم أيضاً أنه لا يستطيع أن يرفض مطلباً لابن عمار فهو يخشى أن تظل هذه الآمال تداعبه فيطلب الجيوش والأموال ويضطر المعتمد إلى أداء هذه المطالب وهو كاره وإنما يؤديها حباً لابن عمار لا لشىء آخر ... كان المعتمد يتمنى أن يفتح الممالك وأن تنضم إلى ملكه ولكنه يريد ذلك بغير عتاد ولا مشقة فإنما لا يزهيه من هذا الاتساع إلا أن يقول الشعر ويفخر بمجده ومجد وزيره ... أما إذا كانت الفتوح تكلفه عنتاً من أمره فبحسبه المجد الذى تم له وهو غنى كل الغنى عن فتوح أخرى . وهكذا فرح المعتمد أن ابن عمار عاد إلى الخمر والشعر وأغضى عن آماله الواسعة ...

ويحس ابن عمار بهذه المعانى التى تدور بنفس المعتمد فينكب على الشعر والخمر متحيناً الفرصة ليعود إلى ما كان

يطمع فيه واثقاً أن المعتمد لن يخذله ... ويزيد بان عمر من إظهار ميله هذا للخمر ومجالس الغناء حتى إنه لا يكتفى بتلك المجالس التى يفسحها له المعتمد بل هو يقبل دعوة من دعاه إلى مثلها فهو يقصد إلى بيوت خاصة أصدقائه فيشرب ويسمع ويبلغ هذا المعتمد فيشتد يقينه أن ابن عمار لن يعود إلى السياسة أبداً .

وقد حدث يوماً أن أرسل إليه أحد خاصته يدعوه إلى ليلة من تلك الليالى وكان هذا الصديق شاعراً فكتب إلى ابن عمار يقول :

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى
إذا كتمت فى ودى سراً ومعلناً
فلو تسأل الأيام من هو مفرد
بود ابن عمار لقلت لها أنا
فإن حالت الأيام بينى وبينه
فكيف يطيب العيش أو يحسن الغنا

ووصلت الرقعة إلى ابن عمار وهو فى زاوية من بيته يتساقط أنباء مرسية من عيونه بها فلم يستطع أن يترك هذا الأمر الجليل من أجل إتقان تظاهره فأغضى عن الدعوة وظل ليلته فى شغل عنها خطير حتى إذا طلع الصبح كتب إلى هذا الصديق يقول له :

Looloo
www.dvd4arab.com

هصرت لى الآمال طيبة الجنى
وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنا
وألبستنى النعمى أغض من الندى
وأجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها
فبت سميراً للسناء وللسنا
أعلل نفسى بالمكارم والعلا
وأغذى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل (١) ذكرك كلما
تعاورت الأسماء غيرك والكنى
لأوسعتنى قولا وطولا كلاهما
يطوق أعناقاً ، ويخرس ألسنا
وشرفتنى من قطعة الروض بالتى
تثاثر فيها الطبع ورداً وسوسنا

وهكذا وفق ابن عمار بين التظاهر بالمجون وبين العمل الجليل الذى يقوم به ولكنه فى هذه الليلة كان قد سمع أنباء ضخاماً وكان لا بد له أن يتهيأ للعمل بعد أن طال به الهجوع إلى الخمر والغناء والرقص .

---

(١) التمويل : الاكثار .

كانت الأنباء تقول ان مرسية قد حان قطافها ولكن ابن عمار لم يشأ أن ينقلب فجأة أمام المعتمد من مخمور لاه إلى رجل عمل ... فهو يتقدم إلى المعتمد ليتحدث عن ولده الأمير الراشد الذى أصبح أميراً على قرطبة ثم هو يطيل من الحديث عنه ليثير شوق المعتمد إليه حتى إذا وصل إلى غايته قال للمعتمد إن الأمير أرسل يطلبه ليقضى عنده بعض ليلة يسرى عنه فيها فيفرح المعتمد لاخلاص ابن عمار ويسأله أن يبلغ تحياته إلى ابنه .

ويذهب ابن عمار من فوره إلى الراشد بقرطبة ويجلس إليه يروى له من شعره وشعر غيره حتى إذا دارت الكأس وانتشى الراشد نظم ابن عمار أبياتاً فى جلسته تلك يقول :

ما ضر إن قيل إسحاق وموصله
ها أنت أنت وذى حص وإسحاق
أنت الرشيد(١) فدع ماقد سمعت به
وإن تشابه أخلاق وأعراق
لله درك ... داركها مشمشعة
واحضر بساقيك ما قامت بنا ساق

تمتد الجلسة إلى الصباح والجالسون لا يحسون بليل ينحسر

---

(١) يقصد بهذا المقابلة بين الراشد والرشيد وقد كان الراشد يدعى بالرشيد أحياناً .

Looloo
www.dvd4arab.com

ونهار يشرق حتى يأتى خادم فيؤذن سيده أن الأصباح قد أقبل فاذا ابن عمار ينطلق ناظماً موجهاً كلامه إلى الخادم والخادم مبهوت لا يفهم شيئاً مما يلقى إليه :

« ليلة ضمنت معانى السرور ... وأضاءت بنور وجه الأمير
وغدا الليل كالضحى بمحيا ... ه وبالبشر غامراً والحبور
ليلة كلها صباح وضى ... أين منه نور الصباح المنير
أتقول الصباح ويحك يا أحمق ... إن الصباح وجه الأمير » (١)

وهكذا مكث ابن عمار لدى الراشد يظهر أنه يسلبه وهو فى الواقع يستطلع أنباء مرسية التى كانت قريبة إليه حتى إذا علم أن الوقت قد حان أرسل إلى المعتمد يخبره أن مرسية ثائرة على حاكمها « ابن طاهر » وأن زعماءها قد كتبوا إليه يريدون جيشاً من المعتمد يفتحها ويلح ابن عمار فى خطابه ولا يفوته أن يذكر أن ليس ثمة رهينة ولا اتفاق فليس ثمة خشية ... ومرة أخرى يصدق المعتمد أقوال ابن عمار فيرسل الجيش على أتم أهبة ويتولى ابن عمار قيادة الجيش ويأخذ سبيله إلى أقرب حصن وهو حصن « بلج » وكان زعيم الحصن رجلا يدعى «ابن رشيق» ما إن يسمع بقدوم ابن عمار حتى يخرج إليه ليستقبله ويدعوه للنزول فى قصره فيقبل ابن عمار الدعوة ويفسح له الضيف

(١) هذه الأبيات لم يعثر عليها منظومة ولكن معناها ورد فى أصول إفرنجية وقد تفضل بنظمها الأستاذ العوضى الوكيل .

مكاناً رحيباً ويسكب عليه من الحفاوة والتكريم ما لم يكن ابن عمار ينتظره .. وامتحن ابن عمار « ابن الرشيق » فعرف أنه يستطيع أن يثق به فحادثه فى أمر « مرسية » وطريق فتحها فاذا ابن رشيق على أتم معرفة بحالة مرسية وبالوسيلة التى تصل بهما إلى الفتح وهكذا وجد ابن عمار عوناً من حيث لا يحتسب وما هى إلا بعض الساعة حتى كانت حامية حصن بلج تحت قيادة ابن رشيق قد مشت مع جيش ابن عمار فى طريقهما إلى مرسية .

كانت بلدة « مولا » هى طريق المؤن إلى مرسية وليس غيرها من طريق فحاصرها ابن عمار وابن رشيق حتى وقعت فى أيديهما فأصبحت مرسية فى حال من الضنك شديد ... وفرح ابن عمار بفتحه هذا ولم يطق صبراً ... فترك ثلة قليلة من فرسانه فى مولا وسارع إلى المعتمد ليزف إليه البشرى وليمحو أثر الهزيمة الأولى وليتقبل من مولاه التهنئات ... و ... ولشىء آخر يرجو مولاه أن يحققه له ... إنه يريد أن يكون حاكماً على مرسية إن هى وقعت له ... وما كان المعتمد ليمنع عنه مرسية أو غيرها فهى له ..

وتلقى ابن عمار أنباء من عونه ابن رشيق يقول فيها إن وجوه مرسية من ذوى السطوة والسلطان قد خرجوا إليه يسألونه أن يأذن لهم أن يعاونوه فى فتح مرسية وطلبوا إزاء ذلك بعض المال والهدايا ولا ينتظر ابن عمار حتى يستأذن المعتمد بل هو يرسل إلى ابن رشيق أن أقبل ما يعرضون ثم هو يلتفت إلى من معه

Logico
www.dvd4arab.com

فيقول « إن هو إلا يوم أو بعض يوم حتى توافينا الأنباء بفتح مرسية » .

وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى فتحت مرسية أبوابها بأيدى الخونة الذين ما لبثوا أن مدوا أيديهم هذه ليتلقوا بها الهدايا والأموال .

وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى كان ابن عمار فى مرسية ومعه الكثير العديد من الهدايا الفخمة الجميلة فان أملا ضخماً فى حياته قد تحقق وما أهون ما يبذله فى سبيله وإن غلا ...

لم يكن ابن عمار قد تهيأ لدخول مرسية بموكب فخم فكان دخوله لها على غير انتظار من أهلها ولكنه فى صباح وصوله أعد لنفسه استقبال الملوك الغزاه الفاتحين بل إنه لبس مثل ما يلبس الملوك فوضع على رأسه تاجا كتاج المعتمد الذى يتخذه حين يجلس إلى استقبال .

وكان « ابن طاهر » حاكم مرسية المعزول قد استكان إلى كسرة من بيته يبكى ملكه الضائع وأراد ابن عمار أن يبدو لأهل مرسية كريم النفس عف الخصومة فأرسل إلى ابن طاهر بضعة حلل فاخرة ليختار منها ما يريد هدية خالصة من ابن عمار ولكن ابن طاهر أبى أن يجود عليه ابن عمار الذى يعرفه ويعرف خرجه وحماره وأخلاق ثيابه ... ولم يرد ابن طاهر أن يرد الثياب دون أن يخز ابن عمار وخزة تريح بعض ما فى نفسه فاذا هو

يقول لمن يحمل إليه الحلل ... « ارجع إلى مولاك ابن عمار فقل له إن ابن طاهر لا يريد من الثياب غير جبة طويلة خلقه من خشن الصوف الناحل ، وغير قلنسوة قذرة ، فان سألك مولاك عنهما فقل له إنك أنت أعلم الناس بهما » .

وعاد الرسول يحمل الحلل والرسالة ... وأحس ابن عمار وخزة الحديث ولكنه لم يرد أن يفسد فرحه بمثل هذه القالة فكتمها فى نفسه وقد أزمع ردها حين يفرغ إلى ابن طاهر ... ثم التفت إلى أفراحه القائمة ... لقد أصبح ملكاً ... فان مرسية لم تكن مدينة فحسب كبلدته « شلب » ولكنها كانت مملكة تتبعها مدن وولايات ...

إنها القمة ابن عمار ... فانظر إلى قدميك واحذر ... احذر ... فما وراء القمة غير الهاوية .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٢- بين مرسية وإشبيلية

أقام ابن عمار بمرسية حاكماً مطلق اليد يأمر فأمره تنفيذ ، ويشير فاشارته أمر فأصبح بعد أن لبس التاج واستبد بالسلطان لا يحس بالمعتمد فى شىء فأخذ يصدر الأوامر ويمهرها بخاتمه هو لا بخاتم المعتمد ، وأمر فنأشىء جامح وأطلق عليه اسم نفسه دون المعتمد وتبلغ هذه الأنباء آذان المعتمد فيقول قول كثير :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
لعزة من أعراضنا ما استحلت

ولكن ابن عمار لا يرعوى ولا يلتوى به فضل من المعتمد يطوق عنقه وكان ابن عمار فى ذروة مجده حين نما إليه أن فئة ممن لا يزالون على ولائهم لابن طاهر يدبرون أمراً فيما بينهم وأنهم

حادثوا ابن طاهر أن يتزعمهم وحينئذ تذكر ابن عمار ما كان قد نسيه من أمر ابن طاهر وتذكر أنه اغتمزه فذكره بملبسه فأمر ابن عمار بابن طاهر فسجن بقلعة يطلق عليها قلعة (منتاجو) .

وكان لابن طاهر صديق اسمه (ابن عبد العزيز) وكان حاكماً على (بلنسية القريبة من مرسيه ... فأرسل هذا الصديق إلى ابن عمار يرجو أن يطلق ابن طاهر ولكن ابن عمار أبى واستكبر فقد خشى أن يخرج ابن طاهر من سجنه فيؤلب عليه الأعداء .. فلما يئس ابن عبد العزيز من ابن عمار أرسل يستنجد بالمعتمد فى أشبيلية وألح عليه حتى أرسل المعتمد إلى ابن عمار يأمره بإطلاق أسيره ولكن ابن عمار لم يلتف أمر المعتمد كما لم يلتف إلى رجاء ابن عبد العزيز وأبقى على ابن طاهر فى سجنه .

واغتاظ المعتمد من ذلك ... وكان الذين حوله فى القصر قد أوغرت صدورهم على ابن عمار فاهتبلوا فرصة غضب المعتمد ، وأخذوا يكيلون التهم لابن عمار يتزعمهم فى ذلك أبو الوليد ابن زيدون ابن شاعر الأندلس الأشهر ابن زيدون وكان آنذاك ذا نفوذ فى قصر المعتمد يلى نفوذ ابن عمار وقد أحب ألا يلى هو أحداً فينفرد وحده بجاه الملك وجبروته فحق له إذن أن يقدح فى ابن عمار ويتسقط مظاهر خروجه على المعتمد ويرويها له مضيفاً إليها ما يزيدها بشاعة حتى فاضت الكأس بالمعتمد ولكنه أراد أن يجرب تجربة أخيرة قبل أن يقطع صداقة حياته

www.dvd4arab.com

فأراد أن يرسل إلى ابن عمار رسولا آخر يأمره أن يطلق سراح ابن طاهر ولكن الأخبار وافته أن ابن طاهر قد تمكن أن يهرب من قلعة منتاجو وأنه قصد إلى ابن عبد العزيز ونزل بقصره ضيفاً كريماً وكانت هذه الأخبار حقا كلها ... ونزلت على المعتمد برداً وسلاما فقد كفته مؤونه التجربة واستراح وأوهم نفسه أن ابن عمار قبل أن تدبر هذه المؤامرة تحت عينيه فيهرب الأسير بدلا من أن يطلق فيحفظ بها على نفسه كرامتها أمام من يحكمهم ويطيع فى الوقت ذاته أمر المعتمد إليه ...

هكذا اعتقدت نفس المعتمد الصافية ولكن الحقيقة أن هروب ابن طاهر والتجاءه إلى ابن عبد العزيز نزل على ابن عمار نزول الصاعقة فأصبح كالمجنون يبحث عن وسيلة ينتقم بها من ابن طاهر وابن عبد العزيز معاً حتى إذا ضاقت لجأ إلى سلاحه القديم الذى أوصله إلى ما هو عليه الآن واحد يكتب القصائد الطوال فى هجاء ابن عبد العزيز ولم يكن ابن عمار كريماً فى هجائه بل كان ثائراً لا يدرى ماذا يقول فكتب يهجو زوجة ابن عبد العزيز ويحرض أهل بلنسيه أن يثوروا بصاحبهم .

وبلغت هذه القصائد مسامع المعتمد فعرف أن حسن ظنه بابن عمار كان أوهاماً واغتاظ أن يكتب ابن عمار هذه الأبيات فيشهر الملأ أنه كان يعارض المعتمد فى إطلاق ابن طاهر وغاظه أن يتهجم ابن عمار وهو من هو علىً قدار أمثال

المعتمد من الملوك الكابرين ... اغتاظ المعتمد وأراد أن يحارب تدبر للأمور بل أنسته كل ما سكبه عليه المعتمد من فضل .. لقد أخذ المعتمد بعد صداقة خمسة وعشرين عاماً لابن عمار ينظم قصيدة فى هجاء ابن عمار .

وبلغت القصيدة ابن عمار وكان فى أوج مجده وكان الذين حوله يوهمونه أنه الفرد العلم فتمكنت نشوة المديح من رأسه وأنسته ماضيه وعقله وكياسته وأنسته كل ما تعلمه من تدبر للأمور بل أنسته كل ما سكبه عليه المعتمد من فضل .. بل نسى أن هذا المديح الذى يسمع هو نتيجة لفضل من أفضال المعتمد عليه وخيل إليه أنه هو صاحب الفضل على المعتمد وأنه هو الذى أدى إليه من الخير ما لم يستطع أحد أن يؤديه له ... نسى ابن عمار كل هذا وخيل إليه أنه غدا ملكاً مثل المعتمد وقابل قصيدة الهجاء من المعتمد بقصيدة هجاء من ابن عمار ولم لا وكلاهما شاعر .

ولكن ابن عمار لم يكن فى مثل شجاعة المعتمد فهو فى عميق نفسه يحس — ما زال — بأنعمه وهو يعرف تماماً الفارق بين المفضل والمفضول فهو يلقى القصيدة فيمن ظنهم خاصته وكان من بينهم يهودى من عيون ابن عبد العزيز استطاع أن ينال ثقة ابن عمار إن سمع القصيدة حتى أبدى إعجابه الضخم بها ثم طلب خمراً ليستمع إليها مرة أخرى وهو مخمور فترداد نشوته وجاءت الخمر فأخذ اليهودى يشرب حتى فى

(أمن ممكن)
www.dvd4arab.com

إقلال وزرانة بينما يعطى ابن عمار الكؤوس دهاقاً مليئة حتى دار رأس ابن عمار فسرق اليهودى القصيدة منه مكتوبة بخط يمنيه وأرسل رسولا إلى ابن عبد العزيز فى مرسية وما لبث هذا أن أرسلها إلى المعتمد فى أشبيليه وقرأ المعتمد ... ولأول مرة بعد خمسة وعشرين عاماً من صداقته لابن عمار قصيدة يهجوه فيها ابن عمار ... بل إنه لم يهجه وحده وإنما زاد فهجا « اعتماد » وسخر من حب المعتمد لها وزاد فذكر بنياته وأهل بيته بشر .

سفر العداء إذن وصرح الشر وتقطعت السبل بين الصديقين فما لإصلاح من سبيل وملأ الغيظ قلب المعتمد فأخذ يدبر للانتقام .

ولها ابن عمار عما يدبر له والتفت إلى ما يحيط به من مجد وقد استقر لديه أن الأمور قد أسلست قيادها له .

نسى ابن عمار أن الذى فتح له مرسية يستطيع أن يثيرها عليه ... نسى ابن رشيق صاحب حصن بلج الذى عاونه ... نسيه وهو فى أوج مجده وفى غمرة ملكه فما التفت إليه وما أنافه مما كان يطمع شيئاً ... ويل المديح أنه يعمى أشد الناس ذكاء عن أبسط الأمور وأقربها إلى الذهن ... لقد استطاع أن يعمى حتى ابن عمار فما عاد يلتفت إلى تلك الأشياء الدقيقة التى ما كانت لتفوت عليه قبل أن يصل إلى الملك .

لقد وجد ابن رشيق ألا غناء عند ابن عمار وعرف بقصيدة المعتمد ثم بقصيدة ابن عمار فعرف أن المعتمد يريد الانتقام فشد إليه الرحال وعرض بين يدى الصديق الذى يريد أن ينتقم لصداقته ، والزوج الذى يريد أن ينتقم لزوجه ، والأب الذى يريد أن ينتقم لولده ، وصاحب الفضل الضائع الذى يريد أن ينتقم لفضله ... عرض بين يدى المعتمد وسيلة الانتقام .

كان ابن عمار ما يزال فى بلهنيته ليس يدرى بأمر أعدائه الذى ألبهم هو على نفسه .. خيل إليه أن ابن عبد العزيز وابن طاهر لن يمدا إليه يدا بشر وخيل إليه أن ابن رشيق لن يهم به فهو صديقه وحسب ابن رشيق فخاراً أن يكون صديقاً لابن عمار .

خيل إليه هذا كله فانصرف إلى مادحيه ، وبينما ابن عمار فى هالة من صحابته إذا سمع أصوات ضجيج وصخب وصراخ تتقارب نحو قصره فقام إلى الشرفة فوجد جموعاً حاشدة تدنو وما هى إلا لحظات حتى استبان صراخهم ... لقد كانت الثورة به ... لقد جاء الجنود يطالبون بمرتباتهم ويهددون بالويل العظيم إن هم لم ينالوا ما يريدون ... أدرك ابن عمار حينئذ أنه وقع فريسة خيلائه وبهم أن يلوذ بسهم آخير فيخطب الجموع أنه سيسأل المعتمد أن يرسل إليه المال فيعطيهم رواتبهم ولكن قبل أن يفعل هتف به نائب الجنود من أسفل الشرفة :

— هيه ابن عمار أحسبت أن تقطع عنا أرزاقنا وسكت

www.dvd4arab.com

عنك ... هيهات ... لقد أقسمنا فيما بيننا قسماً غليظاً إن لم تسلمنا حقنا سلمناك للمعتمد من قورنا ... إلى المعتمد يا ابن عمار أتعلم من هو المعتمد اليوم .

كان القول حاسماً ... نعم إن ابن عمار يعلم من هو المعتمد اليوم إنه النقمة التى كانت خيراً ... وإنه الذل الذى كان مجداً ... وإنه النار التى كانت ندى ورحمة وبرداً ... عجز ابن عمار الذي احتال على الملوك والوزراء والكابرين ... عجز عن أن يحتال على ثلة ليست من الملوك ولا الوزراء والكابرين وإنما هم أصحاب حق يطالبونه به ... مهما تكن الأيدى التى حركتهم قد ابتعثها الحقد والانتقام والبغض الشديد إلا أن هذا لا يغير من موقفهم شيئاً ... إنهم أصحاب حق يطالبونه به .

لم يبق أمام ابن عمار إلا أن يفلت بحياته فهو يتكلم لا ليدافع ولا ليطلب من القوم الريث فقد رأى منهم عزماً وإصراراً ... إنه يتكلم فلا يقول شيئاً إلا :

— أيها الجند ... إن هى إلا بعض الساعة حتى تكون رواتبكم بين أيديكم ... ويدخل ابن عمار إلى القصر لا ليؤدى الرواتب فما كان بخزائنه شيء فلقد اشترى المديح الذى تهدى إليه بكل المال الذى كان لديه ... يدخل ليجمع ما يطيق

أن يحمل ... ومن باب سرى يخرج ابن عمار من القصر فلا يراه الجنود ويظل مستخفياً حتى يخرج من مرسية جميعها إلى ... إلى الطريق .

سلام إذن يا قصر الملك ، وسلام أيتها الأحلام التى ما تحققت حتى انهارت ، وسلام أيها المديح الذى ما قيل حتى هوى بالممدوح ... سلام على كل هذا وإلى ... إلى الطريق .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٣ - إلحق أين ..؟؟

حار ابن عمار ... أين يولى وجهه وضاقت به السبل وطال الطريق عليه مرة أخرى فذكر حماره وذكر أيامه الأول وما تبعها وذكر صداقته للمعتمد ثم خيانته له وذكر ... وذكر ... ثم أخذ يورد بذهنه كل الأصدقاء الذى أتيح له أن يعرفهم عساه أن يختار من بينهم من يلجأ إليه ... فكر فى ملوك الأندلس المسلمين الذين يعرفهم أجمعين ولكنه خشى أن ينصرفوا عنه بل إنه عزف عن الالتجاء إليهم فقد كان فى قصر أعظمهم شأناً وأعزهم سلطاناً فعرف أنه لن يرضى بالأدنى بعد أن ترك مجد المعتمد وقصوره ... وانتقل ذهنه على غير إرادة منه إلى ملوك الفرنجة فى الأندلس ... وفكر

ريمون صديقه ولكنه لا بد قد اكتشف زيف الذهب الذى أرسل إليه فدية ... ثم فكر فى الأذفونش .

أجل الأذفونش ولم لا ... لقد ترك أعظم ملوك الأندلس العربية فما له لا يذهب إلى أعظم ملوك الأندلس الإفرنجية ... تذكر الشطرنج ولكنه تذكر أيضاً أنه أهداه للأذفونش وتذكر أن الرجل يقدره فيطلق عليه « رجل الجزيرة » وأن قصة الشطرنج فى ذاتها لدليل على ذكاء ابن عمار وإن يكن الأذفونش هو ضحيته فيها إلا أنه سيقدر الذكاء — لا شك — لأنه رجل ذكى وسيقدر الولاء الذى عمل به ابن عمار من أجل المعتمد وسوف ينتظر نفس هذا الولاء من ابن عمار له إذا عمل به من أجله ... وإن يكن ثمة غضب ما زال فى نفس الأذفونش فلا شك أنه سيكون غضباً هيناً غثت عليه السنون يستطيع ابن عمار ببعض كياسته أن يزيله .

واتجه ابن عمار إلى « ليون » عاصمة الأذفونش وألقى رجاءه ببابه ولكن ويح الأيام ... هيه ابن عمار لقد بدأت هبوطك إلى الهاوية فلات حين صعود ... لقد رفض الأذفونش إيواء ابن عمار وكان قد علم بكل ما حدث فى بلنسية فبعث ابن عمار بقوله :

— أنت سارق يا ابن عمار ...

Loolpo
www.vvu4arab.com

على يد ابن رشيق فليس ظلماً أن يسرق منك الملك بنفس اليد التى سرقته لك .

وخرج ابن عمار من ليسون ولم يبق له إلا أن يرتمى بأبواب الملوك العرب مرة أخرى ولكنه فى هذه المرة لا يعرض شعراً يقوله خامل ذكر لا يعرفه أحد وإنما هو يعرض ابن عمار بتاريخه كله الذى لا يجهله أحد ... يعرض ابن عمار الوزير الداهية والسياسى البارع والقائد الصنديد .

يذهب ابن عمار إلى « سرقسطة » وهى مملكة أندلسية عربية يقوم عليها أحد ملوك الطوائف يطلق على نفسه اسم الملك « المقتدر » وكانت هذه المملكة هينة الشأن صغيرة الرقعة ففرح صاحبها أن يكون بين رجاله وزير المعتمة الأول ومن كان صديقه الأثير ... يأوى المقتدر ابن عمار ويوليه بعض شؤون الدولة ولكن هذه المملكة الصغيرة التى تتضاءل لا أمام إشبيلية فحسب بل إنها لتتضاءل أمام مرسية مملكته .. هذه البلدة ... سرقسطة لا تتسع له فهو لا يطيق العيش فيها فيزعم ابن عمار للمقتدر أنه لم يعد يطيق العيش فى زحمة الناس أنه يود لو أتيح له أن يذهب إلى مملكة بعيدة منقطعة عن الناس الذى كرههم جهده والذين يريد أن يباعدهم جهده فيسأله المقتدر عن المكان الذى يريد فيجيبه ابن عمار أنه يتوق أن يذهب إلى « لاردة » التى يحكمها « المظفر » أخو « المقتدر » ويقبل المقتدر آسفاً ويذهب ابن عمار إلى « لاردة » فيستقبله

« المظفر » أحسن استقبال وينزله بأكرم مكان ويفرح ابن عمار بما لقى وتعود إليه بعض ثقته بنفسه ولكنه ما يلبث أن يضيق بهذه العزلة التى فرضها على نفسه فيرجو المظفر أن يسمح له بالعودة إلى سرقسطة ويزعم له أنه اشتاق أن يرى أخاه « المقتدر » ويصدق المظفر قوله كما كان المعتمد يصدق قوله ويأذن له بالذهاب ولكن ابن عمار يعرف وهو فى الطريق إلى سرقسطة أن المقتدر قد مات وأن ابنه « المؤتمن » قد قام على الملك من بعده فيواصل طريقه كأن لم يسمع شيئاً إنه يريد أن يذهب إلى سرقسطة لا يهمه إن كان عليها المقتدر أو المؤتمن أو من يكون .

ويصل ابن عمار إلى سرقسطة وينزله المؤتمن منزلة كريمة ويستشيره فى أمور مملكته فيصرفها ابن عمار وكأنها شئون ضيعة صغيرة لا مملكة ذات ملك ووزير ويضيق ابن عمار بتضاؤل أعماله فما هى مهما تعظم فى سرقسطة بشىء يذكر إلى جانب أعماله فى إشبيلية أو مرسية أو حتى شلب .

وتلوح لابن عمار فرصة يعمل فيها فيهتبلها ... فقد جاء إلى المؤتمن من يخبره أن أحد أصحاب القلاع التابعين لسرقسطة قد خرج عن طاعة المؤتمن فيعرض ابن عمار على المؤتمن أن يذهب هو لإخضاع هذا الخارج فيقبل المؤتمن فرحاً ويسأل ابن عمار :

Looloo
www.dvd4arab.com

— كم جنـدياً تريد ؟

— اثنـين .

— أسألك كم جندياً تريد لتحارب القلعة .

— أريد اثنين — جنـديين .

— ولكنك تمزح لا شك .

— بل أجـد .

ولكن المؤتمن لا يصدق هـذا القـول ويأبى إلا أن يرسـل جنداً كثيفاً فيصر ابن عمـار على أن يـكون جيشـه مكوناً من اثنين حتى إذا طال النقاش وقفـا عنـد أواسط الأمر فقبـل ابن عمار أن يصحب كوكبة صغيرة من الفرسان .

ويصـل ابن عمـار إلى مـكان قـريب من القلعـة فيأمـر الـكوكبة أن تختفى وراء الجبال ويصطحب هـو جنديين يقصد بهما إلى القلعة ثم ينـادى ابن عمار على صاحبها المتمرد فيجيبه فيقول ابن عمـار :

— هلا نزلت إلى أحدثك حديثاً قصيراً ؟

وينظـر صـاحب القلعـة فلا يجـد إلا ثـلاثة أشـخاص فلا يرهب منهـم شيئاً وينزل إلى ابن عمـار فيستقبله خارج القلعة ويأخذه بيده ليعود به إليها فإذا بالجنديين يطعنان الرجل طعناً متلاحقاً دراكاً فيسقط فى مكانه وقـد فارق الحياة ويرى

جنود القلعة ما حدث لقائدهم فتملك الخشية نفوسهم ويستسلمون ويعـود ابن عمار وقـد نجحت حيلته ويستقبله المؤتمن والفرح يغمره فيذكر ابن عمـار كيف كان يستقبله المعتمد حين كان يعود إليـه بعد أن يوقع أعداءه فى الأشراك فتـدمع عينـاه ولـكن لات حين ...

وثق المؤتمن فى ابن عمار بعد حيلته تلك وكان المؤتمن يفـكر أن يحقق أمنية أبيـه فيستولى على قلعـة « شقورة » وهى قلعة حصينة لا تتبع لسرقسطة وإن كانت قريبـة منهـا فطلب إلى ابن عمار أن يستولى عليها بنفس الطريقة التى استولى بهـا على القلعة المتمردة ولم يكن ابن عمار يدرى أن أهل هذه القلعة قوم آذاقهـم هو مر العـذاب فى مرسـية ... ولم يكن يدرى أن الطريق إليهـا وعر لا يستوى ولا يعتـدل ولكنه كان يدرى أنه يريد أن يعمل وكان يدرى أنه لا يطيق الخمول .

تزعم ابن عمار بضعة من الفرسان وكما فعل فى المـرة الأولى فعل فى هذه المرة فأمر الجنود بالاختفاء واصطحب اثنين وعمـد إلى القلعة لا يريم وتادى ابن عمار فلم يجبه أحد فاقترب وتادى فلم يجبه أحد حتى أصبح ملتصقاً بجدران القلعة فإذا حبل قـد أحاط بوسطه وإذا هـو معلق فى الهواء صاعد إلى أعلى لا يدرى من يجتذبه حتى بلغ نافذة للقلعة فأدخل منها وألقى إلى الأرض ثم عاجله القوم بالقيود فأحاطوا بها معاصمه وأقدامه ...

www.dvd4arab.com

وقع ابن عمار أسيراً فى يد أعدائه وحاول من معه أن ينقذوه فحين رأوا مناعة القلعة أصبح كل همهم أن ينقلبوا إلى ذويهم سالمين فانقلبوا .

ماذا يفعل صاحب القلعة بابن عمار ... إنه يدخل عليه فيجبهه .

ـ ألم تر إلى نهايتك يا رجل الجزيرة ... ماذا تريدنى أن أفعل بك ... لست من أهل السراء حتى أصطنعك لتقول فى شعر المديح ... ولست ذا ملك حتى أجعلك وزيراً ... نعم إنك وزير حصيف لا شك أنك بضاعة رائجة يا ابن عمار ... سأعرضك فى سوق الملوك فمن يغلى الثمن كنت له .

فيجيبه ابن عمار والغضب آخذ منه كل مأخذ :

ـ إلا والله ما نلتنى إلا بالختل القذر ولا والله ما كنت لأمدح مثلك وإن كنت أكبر الملوك .

ـ أتتحدث عن الختل يا ابن عمار ... يا لك من جرىء وقح ... على أننى لن أقتلك كما فعلت أنت بصاحب القلعة ... بل أنا سأبيعك يا أخى إلى الملوك ... لتعود وزيراً كما كنت .. ألا تشكرنى إذن .

وخرج الرجل وترك ابن عمار .

لم تكن إجابة ابن عمار الجريئة عن شجاعة خالصة بل إنه أدرك

أن الرجل يجد فيه بضاعة رائجة فأدرك أنه لن يمسه بسوء حتى يتمكن من بيعه بثمن كبير .

بقى ابن عمار فى سجنه وانسابت إلى ذهنه الذكريات وتطلع إلى القابل من الأيام فوجد نفسه يعود إلى أسوأ مما كان فى شلب يوم عاد إليها على الحمار فهو اليوم يباع كعبد رقيق وهو لم يكن عبداً فى يوم من الأيام .. نعم كان عبداً للتملق والخداع .. كان عبداً لرغباته ومطامحه ... كان عبداً للمديح الذى أحاط به ولكنه لم يكن عبداً فى سوق الرقيق فهو يقول دون أن يفارقه كبره :

أصبحت فى السوق ينادى على
رأسى بأنواع من المال
والله ما جار على ماله
من ضمنى بالثمن الغالى

ثم ينظر حوله فيجد حجرته فى قلعة شقورة تلك صغيرة ويجد القيد فى يديه وقدميه فتدمع عينه وينتظم البيتان فى ذهنه :

بؤسى شقورة عندى أربى على كل بوسى (١)
فقدت هارون فيها وظلت أطلب موسى (٢)

---

(١) البوسى : كنعمى وهى البؤس .

(٢) يعنى أنه فقد النصير إشارة إلى قوله تعالى (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى) وهو يطلب موسى أى الذى ينشفع له .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٤ - سحيق الهاوية

ابن عمار فى السوق سلعة لمن يغلى الثمن والمعتمد ممن عرض عليهم الشراء فمن يشترى ويغلى ثم يغلى إذا لم يكن المعتمد ..

إنه يشترى صداقة خمسة وعشرين عاماً ... إنه يشترى شبابه جميعاً ... شباب أمير شاعر ملك .. إنه يشترى نفسه فى أمتع فترات نفسه ... وماذا للشاعر الشيخ غير شبابه وشعر شبابه ... إن كل لحظة من شبابه لم يدربها الفلك إلا وابن عمار قطب فيها ... لماذا لايغلى المعتمد ... إنه يشترى فى ابن عمار مرآة أنضر ملاوة (١) من حياته .

(١) الملاوة القطعة من الزمن .

ثم يشترى من بعد أبغض فترة فى حياته .. يشترى الصداقة الخائنة .. يشترى العهد المضاع ... يشترى الأخوة الخادعة ... يشترى من هدم الصروح الشوامخ من ثقته وحبه ووفائه ... يشترى ذلك الذى سود الدنيا فى عينيه فبعد أن كانت إشراقة حب وضياء وفاء أصبحت ظلام خيانة وليل خداع .

اشتراه المعتمد إذن وأرسل بابنه الراضى ليأتى به وأوصى ابنه أن يحذر من خداعه وأن يكثر عليه الأحراس ...

وأخذ الراضى صديق أبيه وسار الركب حتى بدت طوالع قرطبة فتذكر ابن عمار وما كان بحاجة إلى قرطبة ليتذكر فهو لا ينسى أبداً .. لا ينسى كيف فتح قرطبة هذه فى أول عهد المعتمد .. ولا ينسى كيف كان يدخل قرطبة بعد ذاك تحف به المواكب الضخام وترنو إليه العيون والسعيد السعيد من يلمس حوافر خيله والسعيد الأسعد من يلم بطرف ردائه ، لا ينسى ابن عمار ... لا ينسى ..

وبلغت طوالع موكب الأمير ظاهر قرطبة فإذا هناك حشد كبير .. لم يجتمع لتحية ابن عمار .. ولم يجتمع لإكرامه .. وإنما جاء يشهد القمة تنحط إلى الهاوية ، والمجد ينحدر إلى الحضيض .

والناس للدنيا تبع ... ولمن تحالفه شيع

ونزل ابن عمار من فوق الحصان الذى كان يمتطيه ومشى إلى

www.dvd4arab.com

حيث يمشون به .. يا لسخرية الأقدار .. إنه سيركب حماراً .. حماراً مرة أخرى .. نظر ابن عمار إلى الحمار فلم يتمالك نفسه من الضحك رغم هذا الضنك الذى يحيط به .. حمار .. أبعد كل هذا السفر الطويل فى مدارج المجد وعليا المراتب يعود إلى الحمار .. ويح الأقدار .. بل إن الحمار ليشبه ذلك الذى سرق أو انسل فى إشبيلية عند قصر المعتضد .. إنه ليكاد يكون هو نفسه يحمل خرجاً كذلك الذى كان يحمله حماره بل إنه ليكاد يكون نفس الخرج وإن كانت جنباته قد ملئت اليوم تبناً بدلا من تلك الكسرات التى كانت فيها .. عود على بدئه يرجع بل إلى شر من بدئه لا بأس إذن فمن على ظهر الحمار صعد إلى القمة فعلى ظهر الحمار ينحدر إلى الهاوية .

لقد كان المعتمد هو الذى مهد سلم المجد لابن عمار فصعد وهو هو نفسه من يمهد له الطريق إلى الهاوية .. هو الذى أوصله وها هو ذا يعيده .. وعلى الحمار يعود .

ركب ابن عمار الحمار وهم بمسير ولكنه رأى عن بعد رجلا يركب حصاناً يعدو إليه ناهباً الطريق نهباً .. فسارع ابن عمار ومد يده إلى عمامته ورفعها عن رأسه وألقى بها إلى الأرض وكان راكب الحصان قد وصل فوقف حائراً لا يدرى ماذا يفعل .. فسأل ابن عمار واحد ممن يحيطون به ماذا فعلت حتى جعلت الرجل يقف باهتاً فقال ابن عمار :

— لقد كان هذا الراكب قادماً من عند المعتمد ليرفع عمامتى من على رأسى ويلقى بها إلى الأرض إمعانا فى تحقيرى والنيل منى فسبقته إلى ما يريد أن يفعله فبهت كما ترى .

ونظر السائل إلى راكب الحصان فإذا هو يؤيد ابن عمار فيما قال معجباً من ذكاء الوزير ودهائه وهكذا لم تتشلل الومضة النافذة عن ابن عمار حتى وهو فى أحلك أوقات حياته .

سار موكب الخزى يطوف بأنحاء قرطبة . فلم يبق من أحد فيها إلا وقد رأى ابن عمار على مطيته الجديدة القديمة إلا المعتمد الذى كان فى قرطبة وأبى أن يرى ابن عمار ..

نعم ابن عمار الذى كان كل ما يخشاه أن يبعد عنه لحظة من زمن .. هو نفسه من يأبى رؤيته اليوم .. بل يأمر المعتمد أن يسير الركب إلى إشبيلية فيدخلها ابن عمار كما دخل قرطبة ثم يلقى به فى السجن .. فكان ما أمر به المعتمد واستقر ابن عمار فى السجن .

ومن هناك أخذ ابن عمار يستشفع بكل ذى أكرومة أن يطلب الصفح من المعتمد والمعتمد يزجر كل محاول فتتكسر على أبوابه الشفاعات حتى إذا ضاق بكثرتها نادى ابن عمار وذكره ... ذكره المعتمد بملابسه القذرة التى دخل بها القصر ... وذكره بليلته الأولى بين شعراء القصر ... ذكره بنفسه وزيراً فى شلب ... ثم أميراً لشلب ثم قائداً للجيش .. ثم ملكاً أو شبه

www.dvd4arab.com

ملك لمرسية ... ذكره فما ألفاه ناسياً ... ثم ذكره بخروجه عليه فى مرسية ... وذكره بقصيدته التى هجاه فيها ... ذكره فلم يلفه ناسياً ... فهب المعتمد فى وجهه .

— فماذا تريد إذن ... لقد أفقدتنى شبابى وهيهات أن يعود ... ألا لعن الله يوماً عرفتك فيه إذن لأبقيت لنفسى ذكرياتى نقية منك .

وعاد ابن عمار إلى السجن وأخذ يكتب إلى أصحابه أن يعاودوا الشفاعة وهو يكتب إلى أصدقائه ينظم أنته شعراً عساها أن تريح بعضاً مما يجد فيقول لأحدهم :

أدرك أخاك ولو بقافية ... كالظل يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به ... فى غير موماة ولا بحر
طاحت صحابته بلا سنة ... وتساقطوا سكراً بلا خمر
بمعارج أدت إلى جرد ... حتى من الأنواء والقطر
عال كأن الجن إذ مردت ... جعلته مرقاة إلى النسر
وحش تناكدت الوجوه له ... حتى استربت بصفحة البدر
متحير سال الوقار على ... مأوى العزيز وقد نصحت فإن
ملكت عنان الريح راحته ... يهمل فقد أبليت فى العذر
واطمت أمر مضيع أمرى ... مستأثر بالحمد والشكر
واصلت خدمة قطع سببى ... عطفيه من كبر ومن كبر
دع ذا وصلنا غير مؤتمر ... فجيادها من تحتها تجرى

وهكذا يبلغ البؤس بابن عمار حتى إنه ليبحث عمن يحادثه أى حديث ولو كان هذا الحديث مكتوباً .

ويلح ابن عمار فى رجائه ويرسل به إلى شتى الناس فيضيق المعتمد بكثرة الشفعاء فيه فيأمر أن تمنع عنه الأوراق فتمنع ... ثم يزيد المعتمد قسوة عليه فيخرجه فى الحفلات التى كانت تقام فى القصر ويجعل منه سخرية للجوارى والخدم فيبصقون فى وجهه ويفتنون فى إهانته وابن عمار صامت ذاهل لا يدرى أفى حلم بشع هو ، أم فى حقيقة ملموسة ... هذه الطنافس ، هذه المقاعد ، تلك البسط ، هاته الثريات ، هذه الأقداح ، هؤلاء السقاة أولئكن النسوة ، إنه يعرف جميع هذا ... ويعرف أنه كان ريحانة هذا المكان ... أهكذا يفعل الدهر بأعدائه .. ويل لأعداء الدهر .. ويعود ابن عمار إلى سجنه شر ما يعود عائد إلى السجن .

وفى يوم يطلب ابن عمار ورقاً ويلح فى الرجاء ويسأل الخدم المعتمد فيأذن فى ورقتين لا تزيدان ورقة ويأخذهما ابن عمار ثم ينشىء قصيدته الخالدة :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح
وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية
فأنت إلى الأدنى من الله أجنح

www.dvd4arab.com

حـانيك فى أخـذى برأيك لا تطـع
عـداتى وإن أثنوا على وأفصحوا(١)
وماذا عسى الأعـداء أن يتزايـدوا
سوى أن ذنبى واضـح متصحح
نعـم لى ذنب ! ! غير أن لحلمه
صفاة يزل الذنب عنهـا فيصفح
وإن رجائى أن عنـدك غـير ما
يخوض عدوى اليـوم فيه ويمرح
ولم لا وقـد أسلفت ودًّا وخدمة
يكران فى ليـل الخطايا فيصـبح
وهبنى قـد أعقبت أعمال مفسـد
أما تفسـد الأعمـال ثمت تصلح
أقلنى بمـا بينى وبينك من رضـا
له نحـو روح اللـه باب مفتـح
وعفـوٌ على آثـار جـرم جنيتـه
بهبـة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت رأى الوشـاة وقولهـم
فـكل إنـاء بالذى فيـه يرشح
ومـا ذاك إلا ما علمت فإنـنى
إذا ثبت لا أنفـك آسـو وأجرح

(١) يقصد وإن تظاهروا بمدحى ثم أوغلوا فى ذمى .

وقالـوا سـيجزيه فـلان بفعله
فقلت وقـد يعفـو فلان ويصفح
ألا إن بطشـاً للمـؤيد يتـقى
ولـكن حلمـاً للمـؤيد أرجـح
وبـين ضـلوعى من هـواه تميمة
ستنفـع لو أن الحمام مجلح (١)
سلام عليـه كيف دار به الهوى
إلى فيـدنـو أو على فينـزح
ويهنيـه إن مت السلو فإنـنى
أمـوت ولى شـوق إليـه مبرح

ويرسل ابن عمـار بخالدته إلى المعتمد فيقـرأها فيطرب ثم ينشدها على الجالسين مترنماً وقـد هملت عبراته وكان بـين السامعين أبو الوليـد بن زيدون فحاول جهـده أن يجد لنفسه مأخذاً إلى القصيدة فتأبت عليـه ولـكنه استطاع آخر الأمر أن يقـول :

— ما أتفـه قـول الخائن :

وبين ضلوعى من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام مجلح

وما يهمنا نحن بما بين ضلوعه ولـماذا لم يرع لهذه التميمة حرمة ولكن المعتمد عاجله :

(١) مجلح : أى منحسر أو متقى .

Looloo
www.dvd4arab.com

— بل إنه والله لم يفقد الذكاء وحسن الإشارة ... إنه ابن عمار وإن خان ، لقد قصد إلى بيت الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وهكذا استعصت القصيدة حتى عن ذم الكارهين ... وحركت فى نفس المعتمد ذكريات قديمة وكان قد تهيأ لجلسة خمر فأرسل إلى ابن عمار أن يأتى وطلب ممن أرسله ألا يراه أحد وهو قادم بابن عمار ... وأخلى المعتمد القاعة وانفض القوم وهم لا يعلمون بما أسره للخادم ويجىء الصديق الشاعر ويجلس إلى المعتمد ويتذاكران ويتناشدان حتى لتكاد النفوس تصفو ويشرق الصباح فيقول المعتمد لابن عمار :

— إياك ... إياك ابن عمار أن تقول لأحد عن جلستنا تلك ... إياك ابن عمار وإلا ...

ولا يكمل فقد كان ابن عمار يعرف تماماً ما بعدها وينصرف المعتمد إلى جناح نومه ويعاد ابن عمار إلى السجن والفرحة تكاد تنفجر من فؤاده فلا يملك نفسه أن يمسك الورقة الثانية الباقية لديه ويكتب إلى الراضى ابن المعتمد يخبره أن أباه قد صفح .

وتصل الورقة إلى الراضى وهو جالس بين صحاب فيهم من يبغض ابن عمار ويحقد عليه ولا يكتم الراضى ما جاء به الخطاب بل هو يذيعه . م

ويصحو المعتمد فإذا سر الأمس هو حديث اليوم فيذهب إلى ابن عمار فى سجنه :

— آأذعت ما حذرتك أن تذيع .

— بل لا و ...

— وحقى .

— ... وحقك .

— إذن فأين الورقة الثانية .

— أى ورقة .

— لقد أرسلت إليك ورقتين كتبت فى إحداهما القصيدة فأين الثانية .

— لقد ... لقد ... لقد سودت بها القصيدة .

— فهات التسويدة .

وتنغلق الطرق على ابن عمار ... فيبلغ الغيظ أقصاه بالمعتمد فيمسك بقطعة من حديد ذات مقبض كان قد أعدها ويهوى بها على رأس ابن عمار ثم ما يزال يضرب ويضرب حتى يموت ابن عمار بيد المعتمد ... بيد صداقة خمسة وعشرين عاماً بيد المجد الذى اقتعده .. بيد القمة التى ساورها ...

Looloo
www.dvd4arab.com